مقدمة

الحمد للَّه، والصلاة والسلام على إمام الدعاة، والرحمة المهداة، والنعمة المسداة، سيّدنا وحبيبنا وأُسوتنا ومعلّمنا رسولِ اللَّه، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه.

وبعد: فلم أكن أنوي في هذه الآونة خاصة أن أُخرجَ كتابًا عن الشيخ الإمام «أبي الحسن علي الحسني الندوي» رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. مكتفيًا بما كتبته عنه في مناسبات مختلفة..

ذلك لأني في شغل شاغل، ووقتٍ مزدحم بكثرة الأعمال والواجبات التي ضاقت بها الأوقات، وما كنت أحب أن أكتبَ عن شيخنا الحبيب، وأنا في هذه الزحمة، حتى أفرغ له، وأعطيه حقَّه، كما ينبغي له من مثلي، ولكنَّ أقدارًا دفعتني، لأصدر هذه الدراسة عن شيخنا الكبير رحمة اللَّه عليه، وأن أعجِّلَ بها، لتسدَّ ثغرةً في هذا الجانب، وتفتحَ الباب لمن يزيد، فمجال القوة ذو سَعةٍ، ولا سيما أنّي قد كتبت عن ركائز فقه الدعوة عند الشيخ، وحصرتُها في عشرين ركيزة، ولم أتحدث بالتفصيل إلا عن واحدة منها فقط، وتركت لمن بعدي من تلاميذ الشيخ وتلاميذي أن يكملوا ما بدأتُه.

إن مهمة العلماء في الأرض كمهمة النجوم في السماء، هي هداية للسائرين، وهي شهب تنقضُّ على الشياطين، وخصوصًا العلماء الربانيين المتميزين منهم، الذين يعلمون ويُعلِّمُون، فهم ورثة الأنبياء حقًّا، يدعون إلى اللَّه على بصيرة، ويقودون الناس إلى الحق عن بيّنة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

ولقد كان الشيخ الندوي واحدًا من هؤلاء الأفذاذ، الذين بعثهم اللَّه لهذه الأمة

ليجددوا لها دينها، ويعيدوا إليها يقينها، وينهضوا بها لتؤدي رسالتها، ومن حق الشيخ أبي الحسن على مَنْ يعرفه من علماء الأمة ودعاتها وأدبائها، أن يكتبوا عن الشيخ، ويجلّوا مآثره وفضائله، لتعرفه أجيال الأمة الصاعدة، وتتخذ منه أسوة وإمامًا. وبهذا يتواصل الأبناء والآباء، والأحفاد والأجداد، والخلف والسلف.

في هذه الدراسة قدّمت بتمهيد تضمن كلمة الرثاء التي ودعتُ بها الشيخ، ونُشرت في عدد من الصحف، ثم تحدثتُ عن الشيخ في أربعة أبواب:

الباب الأول: عن معالم وأضواء على سيرة الشيح.

الباب الثاني: عن الشيخ داعية وموجهًا.

الباب الثالث: عن الشيخ مصلحًا ومجددًا.

الباب الرابع: عن الشيخ سفيرًا للعجم لدى العرب.

الباب الخامس: عن الشيخ الندوي كاتبًا ومؤلفًا.

والخاتمة: تضمنت أقوالًا وشهادات للشيخ من عدد من كبار علماء الأمة ومفكريها ودعاتها وأدبائها. وأرجو أن أكون بهذه الصحائف المحدودة قد أديتُ بعض حق شيخنا الجليل عليَّ، وأن يكون هذا مما يشفعُ لي عند اللَّه يوم القيامة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

الدوحة: 24/ 10/ 1421هـ - 19/ 1/ 2001م

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

❊ ❊ ❊

تمهيد
أبو الحسن النَّدوي
ربـاني الأمة

- رباني إسلامي قرآني محمَّدي عالمي
- الندوي أخي وشيخي وحبيبي
- لماذا أحببت الندوي؟ وكيف عرفته؟ ومتى؟

❊ ❊ ❊

أبو الحسن الندوي رباني الأمة

في سنة رحيل العلماء الأعلام، وفي العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، وفي يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، وفي آخر يوم من السنة الميلادية التي يعتبرها الكثيرون نهاية القرن العشرين، وقبل صلاة الجمعة، وقد توضأ الشيخ، واستعد للصلاة، وشرع يقرأ سورة الكهف من كتاب اللَّه تعالى - كما تعوّد كل جمعة - وافى الأجل المحتوم العَلَمَ الفرد، والداعية الرباني، والعلّامة المتميز، العربي الأرومة، الحسنيَّ النسب، الهندي الجنسية، العالَمي العطاء: شيخَ الأمة ولسانَها الناطق بالحق، الداعي إلى الخير: السيد أبا الحسن علي الحسني الندوي. وهو أشهر من أن يعرَّف، وأعظم أن يؤدَّى حقه بكلمات.

لقد قدر اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أمتنا في هذا العام[1]: أن تودِّع عددًا من كبار العلماء وخيارهم علمًا وعملًا ودعوة إلى اللَّه، ابتداءً بعلامة الجزيرة الشيخ «عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز»، ومرورًا بأديب الفقهاء وفقيه الأدباء الشيخ «علي الطنطاوي»، ومن بعده الفقيه الكبير المجدِّد العلامة الشيخ «مصطفى الزرقا»، وبعده المحدث الكبير الشيخ «محمد ناصر الدين الألباني»، وخُتمَ هذا الموكب الحافل بهذا الإمام الجليل الشيخ «أبي الحسن الندوي».

وقدّر اللَّه عليَّ أن أنعي إلى أمتنا الكبرى هؤلاء الأعلام بالحديث عن مناقبهم وآثارهم في حياة الأمة، بالكتابة في الصحف، أو بالكلام عنهم في برنامجي «الشريعة والحياة» في قناة الجزيرة الفضائية في قطر، وبرنامجي الآخر «المنتدى» في قناة «أبو ظبي» الفضائية، وذلك وفاءً ببعض حقهم علينا، وكذلك حق الأجيال الصاعدة

(1) هو عام 1420هـ، وقد وافقه عام 1999م في أكثر شهوره.

أن تعرفَ قدر هؤلاء الأكابر، وما أدوه لدينهم وأوطانهم، طيلة حياة عامرة بالخير، فياضة بالبذل والعطاء.

فلا غرو أن أتحدث عن شيخنا الندوي ببعض ما يستحقه، مقتبسًا من بعض ما كتبته عنه في حياته، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له وتقبّله في الصالحين.

وكيف لا أتحدث عن هذا الإمام الرباني، الإسلامي، القرآني، المحمدي، وهو أخي وشيخي وحبيبي، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

شيخ رباني:

أما أنه «رباني» فلأن السلف أجمعوا على أن الرباني هو الذي يعلم ويعمل ويعلّم، فمن علم ولم يعمل بما علم فليس برباني، وعلمه حجة عليه، وهو من العلم الذي لا ينفع، وهو مما استعاذ منه الرسول ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنْ عِلمٍ لا ينفعُ، وَمِنْ قَلبٍ لا يَخْشَعُ** ... ».

ومن علم وعمل، ولكنه لم يعلّم غيرَه، ولم يدعُ الآخرين، فليس برباني، فقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

ومن علم وعمل وعلّم فذلك هو الرباني الذي يُدعى عظيمًا في ملكوت السماء: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

وكلمة «الربانية» هي الكلمة التي اختارها الشيخ أبو الحسن ليعبِّر بها عن «التزكية» التي عُنِيَ بها القرآن الكريم، وجعلها شعبة أساسية من مهمة الرسول ﷺ – وعن مقام الإحسان الذي بيّنه الرسول الكريم بقوله: «**أَنْ تعبدَ اللَّهَ كأنَّكَ**

تراه، فإنْ لَمْ تكُنْ تراهُ فإنَّهُ يَـرَاكَ»، وذلك في كتابه القيّم المعبِّر «ربانية لا رهبانيـة» يريد به السلوكَ الخالِصَ لوجه اللَّه، السالم من البـدع ومـن المبالغـات المذمومـة في الاعتقاد أو السلوك.

إسلامي:

وأما أنه «إسلامي» فلأن الإسلام لحمتـه وسـداه، ومبتـدؤه ومنتهـاه، وأدنـاه وأقصاه، إليه يسعى، وعليه يدور، وله يعمل، وبه يعتصـم، ومنـه يسـتمد، وعنـه يصدر، وفيه يحب ويبغض، ومن أجله يكتب ويصنّف، ويدرّس ويحاضر، ويسافر ويقيم، ويصل ويقطع، فهـو شـغله في نهـاره، وحلمـه في ليلـه، وزاده في سـفره، وأنيسه في إقامته، فهو بالإسلام وللإسلام، ومن الإسلام وإلى الإسلام.

إن الذي يشغل عقله وقلبه ووقته باستمرار هو الإسـلام: رسـالته وحضـارته، وانبعاثه وصحوته، وقضايا أمته، وهجمة أعدائه، وأعظم مـا يمهمـه هـو تقويـة الجبهة الداخلية في مواجهة الغزوة الخارجية، هو تربية الفرد؛ لأن اللبنة الأساسـية في بناء الجماعة، هو تغيير ما بالنفس حتى يغير اللَّه ما بالأمـة: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: 11].

قرآنيّ:

وأما أنه «قرآنيّ» فلأن القرآن هو مصدره الأول، منه يستمد، وعليه يعتمد، وبه يأنس، وإليه يحتكم، يتعبَّد بتلاوته، ويتلذذ بقراءتـه، ويـزداد إيمانًـا إذا تـلي عليـه، ويعيش في رحابه، متجاوبًا مع آياته، متدبرًا لمعانيه، يستخرج منه اللآلئ والجواهر، يعرضها في محاضراته وكتبه ورسائله، بعقل متفكر، وقلب متأثر. يشهد بذلك كله من استمع إليه محاضرًا، أو قرأ كتبه الكبيرة أو الصغيرة، فهو رجـل القـرآن حقًّـا.

ومَنْ كان القرآن إمامه فلن يضل أبدًا.

محمدي:

وأما أنه «محمدي» فلا أعني مجرد أنه من نسل الرسول ﷺ ومن السلالة الهاشمية الحسنية، فكم من حسنيين وحُسينيين تناقض أعمالهم أنسابهم «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»، وإنما أعني أنه رجل جعل الرسول الكريم ﷺ أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها، واتخذ سيرته نبراسًا له، في تعبده وزهده، وإعراضه عن زخارف الحياة، وزينة الدنيا، فهو يعيش في الخَلَف عيشة السلف، لا يهتم بما يهتم به أمثالنا من متاع وتملك ورياض وزينة، تحسبه إذا رأيته سلمان الفارسي أو أبا الدرداء.

وحديثه عن الحبيب المصطفى ﷺ ليس محض حديث باحث دارس، بل حديث محب عاشق، معجب بهذه الشخصية الضخمة الفريدة، شخصية محمد بن عبد الله ﷺ، وليس هذا في كتابه القيم «السيرة النبوية» فقط، بل في سائر كتاباته ومحاضراته وأحاديثه المعبرة عن هذا الإعجاب.

وهذا الحب، وهذا التأسي نابع من فهمه لهذه الحياة النبوية الشامخة، وهضمه لهذه السيرة الجامعة، وتذوقه لما فيها من معاني الكمالات التي فرّقها الله تعالى في البشر وجمعها في مصطفاه محمد ﷺ.

عالَميّ:

وأما أنه «عالَميّ» فهذا ما يلمسه كل متتبع لنشاط الشيخ العلامة، فهو - وإن كان هنديَّ المولد والنشأة والدراسة - فهو عالمي الوجهة والغاية، عالمي النشاط والحركة. وهو - وإن اهتم بالمسلمين في الهند، وشارك في همومهم، وتصدَّر

الصفوف أحيانًا في ذلك، كما في قوانين الأحوال الشخصية، التي أرادت الحكومة الهندية يومًا أن تفرض على المسلمين فيها ما يحرمهم من خصوصيتهم - لا يقتصر همه ولا نشاطه على القارة الهندية، بل يمتد إلى العالم كله، ولذا نجد شهرة الشيخ في العالم العربي لا تقل عن شهرته في الهند.

ونجد الشيخ عضوًا في أكثر من مجلس، وأكثر من مؤسسة، مثل المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، والمجلس العالمي الأعلى للمساجد، ومجلس المجمع الفقهي للرابطة، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، والمجمع العلمي بدمشق.

وهو الذي سعى لإنشاء مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، ليكون نقطة انطلاق للفكر الإسلامي في جامعة غربية عريقة، وهو الذي يرأس مجلس أمنائه منذ أنشئ، كما أسهم في إنشاء «رابطة الأدب الإسلامي» لتكون منبرًا عالميًّا لأدباء الإسلام. وهو رئيسها منذ أنشئت أيضًا. ومن قرأ عناوين محاضرات الشيخ ورسائله وأحاديثه، وأين ألقيت؟ وإلى مَن وجّهت؟ يعرف هذه العالمية بوضوح؛ فهناك أحاديث إلى العرب، وأحاديث صريحة في أمريكا، وأسبوعان في المغرب ... من نهر كابل إلى نهر اليرموك، وهناك جملة «إسمعيات» - إذا صح الجمع - وهي الرسائل التي وجهها إلى البلاد التي زارها ناصحًا لها ومشفقًا عليه: «اسمعي يا مصر»، و«اسمعي يا سوريا»، «اسمعي يا زهرة الصحراء» - يعني الكويت - «اسمعي يا إيران» ... إلخ.

الندوي ... أخي وشيخي وحبيبي:

وأما أنه «أخي» فقد ربطت بيني وبينه «أخوة الإسلام» الذي يربط بين الأكبر

والأصغر من أبنائه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، و: «**المسلم أخو المسلم**»، و«أخوة العلم»، والعلم رَحِمٌ بين أهله، و«أخوة الدعوة» والدعوة رابطة بين الدعاة، وإن بعدت الدار، وشطَّ المزار، و«أخوة المحنة» وأعني المحنة بهموم الأمة، وترشيد الصحوة، وتفرّق العلماء، وتوحّد الأعداء، وهجمة الخصوم، وضعف المقاومة، وفساد الحكام، وغفلة الجمهور، وترف الأغنياء، وشغل الدعاة أتباعَهم بالفروع عن الأصول، وبالجزئيات عن الكليات، وبالشكل عن الجوهر، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب.

وأما أنه «شيخي» فلأني تتلمذت على كتبه، وانتفعت بها، واقتبست منها، ونقلت عنها في أكثر من كتاب لي، وكل كتاب فيها له طعم خاص، ومذاق معين، وفكرة محورية يدور عليها، ولا أجد داعية من الدعاة المعاصرين، ولا مفكرًا من مفكرينا المعتبَرين إلا استفاد من كتب الشيخ، واقتبس منها: الشهيد سيد قطب، والداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، والعالم الأديب الكبير الشيخ علي الطنطاوي ... وغيرهم.

بل إنني تتلمذت عليه مباشرة باللُّقيا والسماع منذ لقيته في سنة 1371هـ - 1951م في مصر، وكلما لقيته بعد ذلك، فهو حَفِظَهُ ٱللَّهُ قدوة في حركته، وقدوة في سكونه، وقدوة في كلامه، وقدوة في صمته.

أذكر أنه حينما زارنا منذ أكثر من ثلاثين عامًا في قطر، وكان يشكو من قلة موارد «دار العلوم» بندوة العلماء، اقترح عليه بعض الإخوة أن نزور بعض الشيوخ وكبار التجار، نشرح لهم ظروف الدار، ونطلب منهم بعض العون لها، فقال:

لا أستطيع أن أفعل ذلك! وسألناه: لماذا؟ قال: إن هؤلاء القوم مرضى،

ومرضهم حب الدنيا، ونحن أطباؤهم، فكيف يستطيع الطبيب أن يداوي مريضه إذا مد يده إليه يطلب عونه؟ أي يطلب منه شيئًا من الدنيا التي يداويه منها؟!

قلنا له: أنت تطلب لنفسك، أنت تطلب للدار ومعلميها وتلاميذها حتى تستمر وتبقى.

قال: هؤلاء لا يفرقون بين ما تطلبه لنفسك وما تطلبه لغيرك ما دمتَ أنت الطالب، وأنت الآخذ!!

وكنا في رمضان، وقلنا له حينذاك: ابق معنا إلى العشر الأواخر، ونحن نقوم عنك بمهمة الطلب. فقال: إن لي برنامجًا في العشر الأواخر لا أحب أن أنقضه، أو أتخلى عنه لأي سبب، إنها فرصة لأخلو بنفسي وربي.

وعرفنا أن للرجل حالًا مع اللَّه، لا تشغله عنه الشواغل، فتركناه لما أراد، محاولين أن نقلده فلم نستطع، وكلٌّ ميسر لما خلق له.

لما أحببت الندوي؟

أما أنه «حبيبي» فأشهد أني أحبه، وأرجو أن يكون حبًّا للَّه تعالى، فقد أحببته لتجرده وإخلاصه وربانيته، وأحببته ليقينه وتوكله وقوته، وأحببته لتحرّقه وتوقده وغيرته، وأحببته لاعتداله ووسطيته، وأحببته لنقاء فكره من الخرافة، وصفاء قلبه من الحسد، وسلامة عقيدته من الشِّرْكيات، وسلامة عبادته من المبتدعات، ونظافة لسانه من الطعن والتجريح، بالتصريح أو التلويح، أحببته لانشغاله بالقضايا الكبيرة عن المسائل الصغيرة. وبالحقائق عن الصور، وبالمعنى عن المبنى، وبالعمق عن السطح.

أحببته لحسن خلقه وسهولته، أحببته لحيائه، ورقة طبعه ودماثته. وإني لأتقرب

إلى الله تعالى بحبه، وأرجو أن أُحْشرَ معه ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

وإني أتمثّلُ هنا بقول الشاعر الصالح:

أحـبُّ الصَّـالِحِيْنَ ولَسْـتُ مـنْهُمُ عَسَـانِي أَنْ أنَـالَ بِهِـمْ شَـفَاعَهْ

وَأَكْـرَهُ مَـنْ بِضَـاعَتُهُ الْمَعَاصِـي وَإِنْ كُنَّـا سَـوَاءً فِي البِضَـاعَهْ!

ولست أنا وحدي الذي يحب الشيخ الجليل، فأحسب أن كل من عرفه واقترب منه أحبه على قدر معرفته به، وقربه منه، وكلما ازداد منه قربًا ازداد له حبًّا.

ولا غرو أن يختلف الناس على أشخاص العلماء، ولكنهم يتفقون على أبي الحسن، حتى الذين ليسوا من مشربه، ولا على طريقته، لا يملكون إلا أن يختاروه في مجامعهم، لما خصَّه الله به من مزايا قلَّ أن توجد في غيره ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105].

معرفتي بالندوي:

عرفتُ الشيخ أبا الحسن منذ نحو سبعة وأربعين عامًا، حين زارنا في مصر، أول ما خرج من وطنه في الهند، وأراد أن يتحرك إلى العام من حوله، فكانت زيارته لمصر 1371هـ - 1951م.

كنتُ وقتها طالبًا في كلية أصول الدين، مشغولًا بدعوة «الإخوان المسلمين» مسئولًا عن طلبة الإخوان في «جامعة الأزهر» مع أخي «أحمد العَسّال» وعدد من الإخوة الكرام، وأخطبُ الجمعة في مسجد بمدينة «المحلة الكبرى» القريبة من قريتي، وكنت قد قرأت كتاب الشيخ «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» الذي نشرته «لجنة التأليف والترجمة والنشر» التي يرأسها الأستاذ الكبير «أحمد أمين»

رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد أُعجبتُ بالكتاب، ودللت عليه بعضَ الأصدقاء ليقرءوه، وإن كنت لا أعرف عن صاحبه شيئًا، إلا أنه عالم هندي مسلم، وقد كتب الأستاذ أحمد أمين مقدمة للكتاب، ولكنه لم يوفِّ صاحبه حقه كما ينبغي.

ولكنَّ الكتاب نظرةٌ جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، وهو منظور عالمٍ مؤرخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيدًا، ويعرف كيف يستخدمه لهدفه ورسالته.

وقد ساعده على ذلك معرفة باللغة الإنكليزية، كما ساعده الحس النقدي، والحس الحضاري، والحس الدعوي، والحس التربوي، والحس الإصلاحي – وكلها من مواهبه – على تقديم هذه النظرة الجديدة من خلال كتابه الفريد.

الندوي في مصر ومع المصريين:

اتصل بي بعض الإخوة الهنود الذين يدرسون في الأزهر في مصر، وقالوا لي: هل تعرف الأستاذ أبا الحسن الندوي؟ قلت لهم: أليس هو صاحب كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؟

قالوا: بلى.

قلت: وما شأنه؟

قالوا: سيصل إلى القاهرة يوم كذا.

قلت: أرجوكم أن توصلوني إليه عند حضوره.

وما هي إلا أيام حتى حضر الشيخ، ومعه اثنان من إخوانه ورفقائه الندويين:

أحدهما: الشيخ معين الندوي، والثاني نسيت اسمه.

كان الشيخ ومَنْ معه يسكنون في شقة متواضعة في زقاق من أزقة شارع الموسكي بحي الأزهر، فالشيخ لا يقدِرُ على سُكنى الفنادق، ولا يحبها، وإن قدر عليها - وفي اجتماعات مجلس رابطة العالم الإسلامي بالمملكة العربية السعودية يَدَعُ الفنادق التي ينزل فيها الضيوف، وهي من فنادق الدرجة الأولى، وينزل عند بعض إخوانه.

كما أنه يرفض النزول ضيفًا على بعض الكبراء من الأغنياء والموسرين في منازلهم الفاخرة؛ لعل ذلك للشبهة في أموالهم، أو لئلا يكون أسيرًا لإحسانهم، ولأن القصور والبيوت الناعمة لا توافق ذوقه وسلوكه.

كان الشيخ حين زار مصر في الشباب، لحيته سوداء، ووجهه نضر، وعزمه فتيٌّ، وروحه وثابة، وغيرته متوقدة، كان يحمل حماس الشباب، وحكمة الشيوخ، يحمل فكر العالم الموفَّق، وقلب المؤمن الغيور في آنٍ واحد.

ذهبتُ لزيارة الشيخ في مسكنه المتواضع أنا وأخي وصديقي - «محمد الدمرداش مراد» رَحِمَهُ اللَّهُ - رفيقي في الدراسة، ورفيقي في الدعوة، ورفيقي في المحنة، ورفيقي في السكن، ودعوناه إلى بيتنا في شبرا؛ ليلتقي ببعض إخواننا من شباب الأزهر الملتزمين بالدعوة في صورة ما يسميه الإخوان «كتيبة» وهو تعبيرٌ عن ليلة جماعية تُقضَى في العلم والعبادة والرياضة، وقليل من النوم، وكان الشيخ حريصًا على أن يستمع منا، كما نستمع إليه فكان يسأل عن «حسن البنا» وكلامه وطريقته، ومواقفه وتصرفاته في الأمور المختلفة، كبيرة كانت أو صغيرة؛ مما كوّن معه فكرة عن الشيخ البنا، وأنه كان إمامًا ربانيًّا بحق، ولم يكن مجرد زعيم يطالِب

بحكم إسلامي، بل كان قبل كل شيء مربيًا يريد أن ينشئ للإسلام جيلًا جديدًا يحسن الفهم له، والإيمان به، والالتزام بتعاليمه، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله.

وتكرر لقاؤنا معه، ولقاؤه معنا، نحن شباب الدعوة الإسلامية أنا، والأخ أحمد العسال، والأخ الدمرداش، والأخ عبد الله العقيل، وآخرون.

كانت أيام الشيخ أبي الحسن في مصر أيامًا خصبة مباركة، لا يكاد يخلو يوم منها عن محاضرة عامة يُدعى إليها، أو درس خاص يرتَّبَ له، أو لقاء خاص يعد له.

ألقى محاضرة تحت عنوان «المسلمون على مفترق الطرق» في «دار الشبان المسلمين»، ومحاضرة شهيرة عن «محمد إقبال» شاعر الإسلام في الهند في كلية دار العلوم، كان لها تأثيرها ودويها، والشيخ من المعجبين بشعر إقبال، ويحفظ منه الكثير الكثير، وقد أخرج كتابًا عنه بعنوان «روائع إقبال».

التقى الشيخ في القاهرة بكثير من العلماء والدعاة والمفكرين، وسجَّل عنهم ملاحظاته الدقيقة في كتابه الذي أصدره بعد رجوعه: «مذكرات سائح في الشرق العربي».

التقى بالأديب الكبير الناقد الشهيد «سيد قطب» وأعجب به الشهيد، وكتب مقدمة أخرى لكتابه «ماذا خسر العالم؟» أنصفَ فيها الكتاب وصاحبه، وقدّره حقَّ قدره.

والتقى كثيرًا بالشيخ «محمد الغزالي»، ورافقه في بعض رحلاته الدعوية، وأعجب كل منهما بصاحبه، وكتب عنه الشيخ في «مذكراته» تلك.

وأذكر أن الشيخ الندوي كان قد اصطحب معه عدة رسائل من أوائل كتاباته الإسلامية الدعوية، وهي جملة رسائل تعبر عن حس رقيق، وفكر عميق، وبيان

أنيق، وعن رهافة الحاسة الأدبية، وعمق الحاسة الروحية عند الشيخ.

وأذكر أن الشيخ الغزالي قرأها، ومنها رسالتان، إحداهما: «من العالم إلى جزيرة العرب» والأخرى: «من جزيرة العرب إلى العالم» وفيهما يستنطِق الشيخ ما يريده العالم من الجزيرة من الهُدى ودين الحق، وهو ما قدمته الجزيرة قديمًا للعالم، ورد الجزيرة على هذا التساؤل.

وهنا قال الغزالي معقبًا: هذا الإسلام لا يخدمه إلا نفس شاعرة محلِّقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظ له فيها، ولا حظ لها فيه!

لقد وجدنا في رسائل الشيخ لغة جديدة، وروحًا جديدة، والتفاتًا إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها، إن رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف «ربعي بن عامر» رضي الله عنه بينه وبين «رستم» قائد الفرس وكلماته البليغة له، التي لخّصت فلسفة الإسلام في كلمات قلائل، وعبرت عن أهدافه بوضوح بليغ، وإيجاز رائع:

«إن اللَّه ابتعثنا لنخرج الناس من عباد العباد إلى عبادة اللَّه وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

أبو الحسن الندوي - فيما أعلم - هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف، وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت.

وقد لقي الشيخ أستاذنا «البهي الخولي» وقد أعجب به الأستاذ البهي غاية الإعجاب، وسجّل ذلك في رسالة سطرها إليه[2]، كما لقي الأستاذ «صالح عشماوي» وغيرَه من قادة الإخوان، وجلس إليهم، وتحدث معهم حديثًا نشره في رسالة بعد ذلك، عنوانها: «أريد أن أتحدث إلى الإخوان».

---

(2) نشرت في كتاب: «رسائل الأعلام».

ولقي كذلك أستاذنا العلامة الدكتور «محمد يوسف موسى»، وقد كتب له مقدمة مهمة لكتابه «ماذا خسر العالم؟».

كما لقي الأديب الداعية الشيخ «أحمد الشرباصي» الذي سجل معه مقابلة عن سيرته نشرت في مقدمة «ماذا خسر العالم؟» ومما ذكره في هذه المقابلة: أنه سئل عن أغرب ما رآه في مصر؟ فكان جوابه: أني وجدت العلماء حليقي اللحى! ولا ريب أن هذه صدمة شديدة لعالم لم يرَ في حياته في وطنه عالمًا واحدًا حليقًا، وحلقُ اللحى عندهم من شأن المتفرنجين، والبعيدين عن الدين، أما أن يكون هذا هو الطابع العام للعلماء في بلد، فهو الشيء الغريب! ومن العجب أن بعض شيوخ الأزهر المتحمسين لإعادة الأزهر إلى مكانته القديمة يحاولون أن يفرضوا على الطلبة لبس العمامة، وهي مجرد تقليد! ولا يفكرون أن يفرضوا عليهم إطلاق اللحية، وهي سنة إسلامية بلا ريب!

رحلات الندوي في ريف مصر:

ولم يكتف شيخنا بالنشاط والحركة في مدينة «القاهرة» على سعتها، بل امتد إلى مدن أخرى، سمعتْ بالشيخ فدعته إلى زيارتها، ولقاء الجمهور المسلم فيها.

ومن ذلك: مدينة «المحلة الكبرى» التي كنت أخطب في أحد مساجدها، وقد دعاه إليها الدكتور «محمد سعيد» رَحِمَهُ اللَّهُ رئيس «الجمعية الشرعية» بمدينة المحلة، وهو طبيب أسنان معروف، نذر حياته لإحياء السنة، والدعوة إلى اللَّه على طريقة «إخواننا في الجمعية الشرعية» وقد عرف الشيخ أن بينه وبين الإخوان شيئًا، فهو يأخذ عليهم أنهم لا يلتزمون بالآداب التي يلتزمونها هم من إعفاء اللحية، وإحفاء الشارب، وإرخاء العذبة، وإطالة الصلاة، وقال الشيخ للدكتور: «إن دعوة الإخوان

دعوة عامة، مهمتها أن تجمع الجماهير على الأصول الكلية للإسلام، ثم تربيهم بالتدريج على الآداب الخاصة. ولا بد أن يكون في الأمة المنهجان: النهج العام للإخوان، والنهج الخاص كالجمعية، واستراح الدكتور سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ لكلام الشيخ، ودعاني معه على الغداء عنده».

ولكن سرعان ما كاد هذا يذهب هباء، عندما ذهبنا مع الشيخ إلى بلدة «نبروه» وتكلمت كلمة أغضبت الدكتور سعيد غفر اللَّه لنا وله، ولا أدري: لماذا؟ ولكن الشيخ تدارك الموقف بهدوئه وحكمته، وبات الناس تلك الليلة في المسجد سُجّدًا وقيامًا بدعوة من الشيخ، واستجاب له الكثير من الحضور.

كانت زيارة الشيخ لمصر هي بداية لقائي به، ومعرفتي به، ثم زادتها الأيام قوة على قوة، بيد أن هناك فترة انقطعت فيها أخبار الشيخ عنا، وذلك بعد ظهور ثورة يوليو، وصدامها الدامي مع الإخوان، ودخولنا المعتقلات والسجون، والحيلولة بيننا وبين كل نشاط يتصل بالجماهير من تعليم وتدريس أو وعظ وخطابة، وإن أجبرتهم الأقدار أن يستعينوا بنا حين وقع العدوان الثلاثي على مصر، وقد صُنِّفَ الشيخ الندوي وزميله الشيخ المودودي على أنهما من أعداء الثورة المصرية، وخصوم الناصرية، ولهذا حين صدر قانون إنشاء «مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر» وهو ينص على أن يضم علماء بارزين من أقطار العالم الإسلامي، استبعد اسما الرجلين الكبيرين، مع أنهما كانا أولى المرشحين بذلك لمكانتهما العلمية والعالمية.

ثم شاء القدر أن أُعار من مصر إلى قطر، بعد عشر سنوات من زيارة الشيخ لمصر 1381هـ - 1961م وقد سعدنا بزيارة الشيخ للدوحة، بعد أشهر أو سنة لا أذكر من قدومي إلى الدوحة، وكانت تلك الزيارة تجديدًا وتأكيدًا للصلة السابقة

والمستمرة. وقد أشرتُ إليها فيما سبق.

ثم ظللتُ أتصل به عن طريق ما يصدره من كتب، وما ينشره من رسائل ومحاضرات، وعن طريق مجلة «البعث الإسلامي» التي كنا نعتبرها لسان الدعوة الإسلامية في الهند، ويقوم عليها أخوان كريمان من تلاميذ الشيخ، ومن رجال الدعوة، وهما: الأستاذ محمد الحسني رَحِمَهُ اللَّهُ، وتقبّله في الصالحين، وهو ابن أخ الشيخ، والأستاذ سعيد الأعظمي بارك اللَّه في عمره ونفع به. ولا يكاد يخلو عدد من المجلة من كلمة للشيخ أو بحث، أو من تلخيص لمحاضرة، أو نحوه مما ينفع الناس، ويمكث في الأرض.

ومن أهم الكتب التي ظهرت للشيخ في تلك الفترة:

1 - الجزء الأول من: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، وهو كتاب يعتبر نسيجَ وحده.

وهو - في الأصل - محاضرات عن كلِّ شخصية من الشخصيات المجِّددة التي اختارها الشيخ، وألقاها على طلاب كلية الشريعة في «دمشق» بدعوة من عميدها الداعية الفقيه الدكتور «مصطفى السباعي» رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد أعدها الشيخ الندوي إعدادًا جيدًا، وبينت مدى عناية الشيخ بالتاريخ الإسلامي، ومراحله المختلفة، وعمق معرفته بخصائص الرجال المجددين للدين، والمؤثرين في الأمة، وأن كلًّا منهم جاء في أوانه، وسدَّ ثغرة في جانب من الجوانب لم يكن ليسدها غيره.

وقد أتبع الجزء الأول بأجزاء بعد ذلك، تحدثت عن عدد من الأعلام، مثل: «الحافظ ابن تيمية»، و«الإمام السرهندي»، و«شيخ الإسلام ولي اللَّه الدهلوي»،

و«الإمام أحمد بن عرفان الشهيد».

2 – ومن الكتب التي ظهرت في تلك المرحلة «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»:

وهو يبيّن كيف دخلتِ الفكرةُ الغربية ديار المسلمين، وصارعت الفكرة الإسلامية، التي هي الأصل وصاحبة الدار، وكيف كادت تتفرد بالتأثير والتوجيه فترة من الزمن، ثم قيّضَ اللَّه للفكرة الإسلامية من يجددها، ويدعو إليها، ويذود عنها، لتتبوأ مكانتها.

3 – ومنها: «الأركان الأربعة»:

وهو كتاب يتحدث عن العبادات الأربع الكبرى: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، بلسان الداعية المعاصر، الذي يخاطِب العقل والقلب معًا.

4 – ومنها: «ربانية لا رهبانية»:

وهو كتاب يتحدث عن الجانب الروحي أو السلوكي في الإسلام، لا حديث الصوفي المتأثر بفلسفة الحلول أو الاتحاد، ولا بالطرقية المرتزقة، بل حديث المسلم الملتزم بالكتاب والسنة، العارف الذائق الذي خاض التجربة الروحية، فلم يغرق في بحار القوم، بل خرج بلآلئ وجواهر انتفع بها، ولم تحجبه عنها المصطلحات التي قد تنفر ولا تبشر، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء، وبالمضامين لا بالعناوين.

ثم كان للشيخ بعد ذلك كتب ورسائل سارت بذكرها الركبان، وتلقّاها المسلمون بالقبول في كل مكان.

مع الشيخ في بلده ومجمع نشاطه:

ومما أذكره ولا أنساه: زيارتنا للشيخ في مدينة «لكهنو» بالهند، مقر ندوة العلماء ودار العلوم، وذلك حين دعانا الشيخ حفظه الله للاحتفال بمرور خمسة وثمانين عامًا على تأسيس ندوة العلماء. وقد استجاب لدعوة الشيخ جمهرة من كبار علماء الأمة، من أقطار شتى، على رأسهم فضيلة الإمام الأكبر الراحل الرجل الصالح الشيخ «عبد الحليم محمود» شيخ الجامع الأزهر، والذي أبى الشيخ الندوي إلا أن يجعله رئيس الاحتفال، تكريمًا وتقديرًا للأزهر في شيخه، وحضر معه فضيلة الشيخ الدكتور «محمد حسين الذهبي» وزير الأوقاف في مصر في ذلك الوقت، وحضر الشيخ «أحمد عبد العزيز المبارك» رئيس قضاء الإمارات، والشيخ «عبد الله الأنصاري» مدير الشئون الدينية في وزارة التربية بدولة قطر، والشيخ «عبد المعز عبد الستار» مدير توجيه العلوم الشرعية، وعدد من علماء السعودية وبلاد الخليج.

وكانت أيامًا حافلة تلك التي قضيناها في رحاب الندوة، وكان مهرجانًا رائعًا وباهرًا، اجتمع فيه المسلمون - والهندوس!! - بعشرات الألوف، وعاش الضيوف في فيض من كرم الشيخ الندوي وإخوانه، حتى قال أخونا الشيخ محمد المهدي البدري مازحًا: لم يبقَ إلا شيء واحد يقدمه لنا الشيخ، وهو أن يزوج كلًّا منا فتاة هندية مسلمة!

حضر المصورون ليصوروا ذلك المهرجان، وقال الشيخ: إن مذهبنا - نحن علماء الهند - هو منع التصوير، ولكنا نسمح به اليوم؛ إكرامًا لإخواننا العرب، الذين لا يرون بالتصوير بأسًا.

ألقيتْ كلمات كثيرة في المهرجان، حرص الشيخ أن يقدم بعض المتحدثين

بنفسه، كما فعل معي، وكما فعل مع العلامة الشيخ «عبد الفتاح أبي غدة» رَحِمَهُ اللَّهُ، ولقد قال لي بعدها: إن الناس تأثروا بكلامك، وإن لم يفهموه، لأن الكلام روحًا، قد يصل إلى المستمع مباشرة، وإن عجز المترجم عن توصيله. ولا أنسى كلمة الشيخ لي مرة: إن في كلامك روحًا وحرارة خاصة وهذه قلما تترجم؛ لأن المترجِمَ يترجم المعاني والأفكار، ولا يترجم الحرارة والروح إلا مترجم يملك ما تملك.

وقد وُجدَ هذا المترجم يومًا، ممثلًا في الأخ النابغة: سلمان الحسيني الندوي، من أسرة الشيخ، الذي ترجم كلمتي في «مؤتمر المستشرقين» فقال الشيخ: الحمد للَّه، لقد نقل سلمان المعنى والروح معًا.

لقد رأينا «ندوة العلماء» وجامعتها المتميزة «دار العلوم» في عُقر دارها، تلك الندوة، أو تلك التي طالما سمعنا بها، فعشقناها قبل أن نراها.

- والأذن تعشق قبل العين أحيانًا -

فلما رأيناها وعايشناها صدق الخُبْرُ الخَبَرَ، وأنشدنا مع الشاعر القديم:

كانَتْ مُحَادَثَةُ الرُّكبانِ تُخْبِرُنَا عَنْ جَعْفَرِ بنِ رَبَاحٍ أَطْيَبَ الخَبَرِ
حَتَّى التَقَيْنَا، فَلا وَاللَّهِ مَا سَمِعَتْ أُذنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي!

إنها الدار التي تغنّى بها الشعراء والأدباء، وأشاد بها الدعاة والعلماء، وقال يحييها العلامة الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: كم أتمنى لو رددت إلى عهد الصبا، فأعود لأتعلم في هذه الدار، وأتتلمذ على شيوخها، وأرافق طلابها، وأتنفس في رحابها، وأقتبس منها العلم والإيمان، أو كما قال:

إنها الندوة التي اتخذت شعارها:

الاستفادة من كل قديم نافع، والترحيب بكل جديد صالح، والجمع بين الإيمان

الراسخ والعلم الواسع، والثبات على الأهداف والغايات، والتطور في الفروع والآلات، والأخذ مما صفا من التراث، وترك ما كدر منه.

لقد كانت مشكلة التعليم الأساسية في العالم الإسلامي أنه يقوم على نوعين متناقضين من المؤسسات:

إحداهما: تمثل القديم الموروث، ولا تعرف العصر، ولا تحسن التعامل معه.

والأخرى: تمثل العصر بتياراته ومعارفه، وتوجهاته الهادية والعلمانية، ولا تعرف التراث وقيمه وعقائده ومُثُله.

كان هناك «التراثيون» الماضويون الذين يقولون: ما ترك الأول للآخر شيئًا، وليس في الإمكان أبدع مما كان! فلا اجتهاد في الفقه، ولا إبداع في الأدب، ولا ابتكار في العلم، ولا اختراع في الصناعة، ولا تجديد في الدين ولا في الحياة.

ويقابلهم «العصريون» الذين يريدون أن يجددوا كل شيء، وهم الذين قال لهم إقبال: إن الكعبة لا تجدد، وقال عنهم الرافعي: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر!

وهنا كان الدور المبارك لندوة العلماء، لتقوم بدور التوفيق بين الجانبين، وتطعيم كل واحد منهما بعناصر من الآخر: فقامت الندوة فحلت عقدة الصراع بين القديم والجديد، بين الموروث والوافد، بين الماضي والحاضر، وجمعت بين التراث والعصر أو بين الأصالة والمعاصرة «كما يقال اليوم»، ورفعت شعارات الجمع والتوفيق والوسطية التي أشرنا إليها.

ومن حُسن حظ الندوة أن هيأ اللَّه تعالى لها - منذ تأسيسها - رجالًا كبارًا، أقاموها على قواعد مكينة، وأسس متينة، لا تنهار بسهولة، وقد كانوا كبارًا في

العلم، كبارًا في الفكر، كبارًا في الدين، كبارًا في الخُلق، كبارًا في العزيمة والطموح؛ ابتداء من العلامة «شبلي النعماني»، والعلامة «سليمان الندوي»، والعلامة «عبد الحي الحسني» والد الشيخ، إلى العلامة «أبي الحسن الندوي»، وكلهم قمم شامخة.

هؤلاء الكبار كوَّنوا تلاميذ لهم أشربوا روحهم، واقتبسوا من ضوئهم، وتخلّقوا بأخلاقهم، فساروا على نهجهم، فأنشأ اللَّه تعالى بهم مناخًا علميًّا إيمانيًّا متفردًا في الندوة، فلا تجده في أي مدرسة أو جامعة أخرى، كما أوجدت المعلم المؤمن برسالته، المحب لمهنته، المتجاوب مع طلبته.

في المدارس والجامعات الأخرى قد تجد المنهج الجيد، والكتاب الجيد، ولكنك لا تجد المعلم الجيد، وإذا وجدته جيدًا في الجانب العلمي تجده ميت القلب، خامد الروح في الناحية الإيمانية والتوجيهية.

وهذا ما لاحظناه عندنا في قطر، فقد ألفنا في العلوم الشرعية كتبًا جيدة في مادتها ومحتواها، ولكنها لم تجد المعلم الذي يتفاعل معها، وينقلها حية إلى الطلاب، بل وجدنا ذلك الذي يميتُ المادة الحية، ويلقي على حرارتها من ثلجيته ما يطفِئ جذوتها ويجعلها رمادًا.

ولقد قُدِّر لي أن أسعد بزيارة الندوة ثلاث مرات بعد ذلك؛ مرة: عندما دعاني الشيخ لمؤتمر «المستشرقون والإسلام» في مدينة «أعظم كره» التي تضم «دار المصنفين»، وكان معي الأخوان الكريمان: الدكتور «عبد العظيم الديب» والدكتور «علي المحمدي» من جامعة قطر وقد أبى الشيخ وإخوانه إلا أن يشرفوني برئاسة هذا المؤتمر، الذي استمر ثلاثة أيام، وقد كانت فرصة لزيارة محدِّث الهند العلامة الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الذي زرناه في قريته التابعة لأعظم كره؛

ولهذا نُسِبَ إليها الشيخ وقيل: الأعظمي. وفي العودة مررنا بـ «لكنهـو» وجـددنا فيها الذكريات.

والمرة الثانية: عندما ذهبت بدعوة من الشيخ لزيارة الندوة لمدة أسبوعين، لإلقاء محاضرات على طلاب دار العلوم، والمعهد العالي للفكر الإسلامي، وكانت فرصـة ذهبية للعيش في هذا الجو العلمي الإيماني المحبب، الذي يعيش المرء فيـه بـاللَّه وللَّه ومع اللَّه، ويتنفس علمًا وإيمانًا ودعوة.

ومن سوء حظي أن الشيخ أبا الحسن كان غائبًا عن «لكنهو» وعن الهند في تلك الفترة في إحدى رحلاته المباركـة، ولم ألتـقِ بـه إلا في آخـر الزيـارة في طريقـي إلى «ديوبند» لحضور احتفالها المئوي المشهود، وقال لي الشيخ: أخبرَني الإخـوان أنـك سحرتَ العقول، وأسرت النفوس، قلت له: إنما أستمد من اللَّه أولًا ثم منكم.

والمرة الثالثة: منذ نحو ثلاث سنوات حين دعـاني الشـيخ لزيـارة النـدوة ودار علومها، وإلقاء محاضرات على أساتذتها وطلبتها، وقد قضـيتُ في رحـاب النـدوة أيامًا أعتبرها من أفضل أيام عمري، وألقيتُ فيها عددًا من المحاضرات في أصـول العلوم الشرعية، أحمد اللَّه ﷻ أن وفّقني فيها، وكان مما أسعدني وشـد مـن عزمـي وجود شيخنا أبي الحسن وحضوره كل هذه المحاضرات.

وقد تواصلت لقاءاتي للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مناسبات شتى، وفي أقطار شتى، التقينا به في قطر في زيارة له، أول ما أنشئت الجامعة، وأسعدنا الشيخ بمحاضرة عن «دور الجامعة في تكوين الأجيال».

ثم سعدنا به مرة أخرى في المؤتمر العالمي للسيرة والسنة الذي عقـد في قطـر، في بداية سنة 1401هـ، وكان مقدمةً لاحتفال الأمة الإسلامية بالقرن الخامس عشر ـ

الهجري، فقد أجمع المؤتمرون على اختيار الشيخ الندوي نائبًا لرئيس المؤتمر.

والتقيت به في «ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر».

وكنا نلتقي عادة في «مجلس المجمع الفقهي» برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، حيث نشترك معًا في عضويته.

ونلتقي كذلك في مجلس أمناء مركز إكسفورد للدراسات الإسلامية حيث نسعد برئاسة الشيخ لهذا المجلس.

أما قلوبنا وأرواحنا فكانت تلتقي دائمًا وأبدًا مع الشيخ الجليل، في ظل الحب في اللَّه، وفي رحاب الإسلام العظيم، الذي أكرمنا اللَّه به، وشرّفنا بحمل رسالته، وأعباء دعوته، وهموم أمته.

عزائي للإخوة الأحبة في ندوة العلماء من شيوخ وطلاب في شيخهم وحبيبهم.

عزائي إلى الإخوة المسلمين في الهند في علامة الهند ورمزها الكبير.

وعزائي إلى المسلمين في أنحاء الأرض في فقد هذا العالم الداعية الإمام، الذي قل أن يجود الزمان بمثله.

نسأله جل شأنه أن يأجر أمتنا في مصابها، وأن يخلفها خيرًا، وأن يغفر للشيخ الندوي ويرحمه، ويجزيه عن دينه وأمته خير ما يجزي به العلماء الربانيين، والأئمة الصادقين. وإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

***

الباب الأول

معالم وأضواء
على سيرة الشيخ أبي الحسن

- نشأته وأسرته وتكوينه العلمي.
- أهم المؤثرات في حياته من كتب وشخصيات.
- حياته العملية وجهوده الدعوية ورحلاته.
- ملامح الشخصية الندوية.
- مكانة الشيخ ومحبته لدى مسلمي العالم.

* * *

الباب الأول

نشأته وتكوينه

لقد سهّل الشيخ الإمام أبو الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ الطريق على من يريد الكتابة عن سيرته، مما سطره بقلمه البليغ من مذكرات، شملت مراحلَ حياته منذ طفولته وذلك في كتابه: «في مسيرة الحياة» في أجزائه الثلاث، وفي كتب أخرى مثل: «مذكرات سائح في الشرق العربي» الذي كتبه بعد زيارته للحجاز ومصر وسوريا وغيرها من بلاد العرب سنة 1951م. وكذلك كتبه التي كان ينشرُها بعد رحلاته إلى الأقطار المختلفة.

وسنكتفي هنا بأهم المعالم والمحطات التي تلقي أضواء كاشفة على سيرة الشيخ الحافلة، ومسيرته الطيبة، وحياته الخصبة المباركة، مستفيدين مما كتبه الشيخ، وما كتبه عنه تلاميذه ومحبوه[3] رَحِمَهُ اللَّهُ.

أولًا - اسمه وولادته ونسبه:

هو السيد أبو الحسن عليّ بن عبد الحي بن فخر الدين الحسنيّ، ولد في شهر المحرم سنة 1332هـ بقرية «تكية» بمدينة «راي بريلي» التي تبعد عن «لكهنو» ثمانين كيلو مترًا في بلاد الهند.

وأسرته من أصل عربي، لا تزال تحافظ على أنسابها وصلاتها بأصلها العربي، وإن كانت تعيش في الهند منذ قرون، وتمتاز بتمسكها بالشريعة الإسلامية، وبذل الجهد

(3) وخصوصًا ما كتب عنه في العدد الممتاز الذي أصدرته مجلة «البعث الإسلامي» بعد وفاة الشيخ، ولا سيما مقالات الدكتور: عبد الله مبشر الطرازي، والأستاذ أبو حسان السهلي، والأستاذ سعيد مرتضى الندوي.

في نشر العلم وخدمة الإسلام والعمل لخير المسلمين.

وينتهي نسب أسرته إلى «محمد بن عبد اللَّه بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم»؛ ولذلك اشتهرت الأسرة بالحسنية.

وأول ما جاء إلى الهند من أجداد الأسرة هو «الأمير السيد قطب الدين محمد» المدني 581 - 677هـ عن طريق بغداد وغزنة في أيام فتنة المغول في أوائل القرن السابع الهجري مع جماعة من أصحابه، وتولّى مشيخة الإسلام في «دهلي» مدة من الزمان، ثم خرج مجاهدًا في سبيل اللَّه، وفتح القلاع، ونشر الإسلام، وربّى جماعة كبيرة من أهل العقيدة السليمة، والعلم والصلاح، والدعوة إلى اللَّه تعالى.

وقد بارك اللَّه في ذرية الأمير السيد «قطب الدين» ونفع به المسلمين، وكثر فيها علماء ودعاة تبنَّوا الدعوة الإسلامية، وقادوا الحركات الدينية في أزمان مختلفة، كان أبرزهم في القرن الحادي عشر الهجري «السيد علم اللَّه بن فُضيل الحسني» المتوفى سنة 1096هـ وهو منشئ المركز الديني في بلدة «راي بريلي» في الهند.

وقد كثر في ذريته العلماء الكبار، الذين قدّموا خدمات جليلة إلى الإسلام، وكان أشهرهم «السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» وهو قائد حركة الدعوة إلى اللَّه في تاريخ الهند الإسلامي، ومؤسس الحكومة الإسلامية في الحدود الشمالية الغربية للهند، التي لم تستمر طويلًا بسبب مؤامرات الإنكليز عليها، واستُشهد مع عدد من أصحابه في معركة «بالاكوت» في 24 ذي القعدة 1246هـ - الموافق 6 مايو - آيار 1831م، وكان هدفه الرئيس هو إجلاء الإنكليز من الهند وتحرير البلاد.

ونبغ من هذه الأسرة علماء ومؤرخون وأدباء، تركوا كتبًا علمية كثيرة، وكان أكبرهم جد الشيخ الندوي وهو «السيد فخر الدين بن عبد العلي الحسني» ولد سنة

1256هـ، وقرأ القرآن وتعلّم الفارسية والأُردية، ودرس العلوم الدينية عند بعض العلماء، ثم أصبح صدر المدرسين في مدرسة حكومية في «حيدر آباد». ومن مؤلفاته كتاب: «مهرجان تاب» في ثلاثة أجزاء بالفارسية في العلوم والفنون والتراجم والسير، وكتاب: «سيرة السادات» في بيان أنساب السادات والأشراف، وكتاب: «سيرة الشيخ علم الدين الحسني» بالفارسية، وديوان شعر بالأردية، وكان زاهدًا في الدنيا، وتوفي يوم 10 رمضان 1326هـ الموافق أكتوبر 1908م رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثانيًا - أفراد أسرته المقربون:

إن للأسرة أثرًا كبيرًا في شخصية الإنسان، فالتربية الدينية والعلمية والاجتماعية الصحيحة تساهم مساهمة عظيمة في تكوين عقليته، وتوجيهه نحو الحياة الفاضلة، والشيخ الندوي نشأ في أسرة دينية علمية، وتأثر بها، وأخذ عنها، حتى تكونت عقليته العلمية وشخصيته الإسلامية، فأصبح أحد العلماء العظماء في العالم الإسلامي، بل أحد دعاة الإسلام من الطراز الأول في هذا العصر.

وهنا أذكر أقرب الناس إلى الشيخ الندوي من أفراد أسرته الكريمة، الذين كانوا مثالًا في التمسك بالدين والتقوى، كما كانوا عظامًا في العلم والفكر، وكبارًا في الخلق والعمل رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ حتى نعرف من خلال سيرتهم الموجزة أثر الأسرة في التربية ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: 58].

وَهَلْ يُنْبِتُ الخَطِيَّ إِلَّا وَشِيْجُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ؟

والد الشيخ: هو العلامة السيد «عبد الحي الحسني» ولد في 18 رمضان 1286هـ الموافق 22 ديسمبر - كانون الأول 1869م، وكان من كبار العلماء في

القرن الرابع عشر الهجري، أو القرن العشرين. عاش في عصر يُعَدُّ من أكثر العصور اضطرابًا فكريًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا في بلاد الهند. حيث كانت الأفكار الشرقية والغربية تتصارع فيما بينها، كما كان عهده متصلًا بعهد القلاقل التي حدثت نتيجة لحرب التحرير التي سمَّاها الإنكليز ثورة 1857م أو الثورة الهندية الكبرى، التي غيرت القيمَ القديمة، وقضت على الحياة الإسلامية، وبدأت الحضارة الغربية تنتشر في ظل الحكم البريطاني.

وقد نشأ العلامة عبد الحي في هذه الوضعية المضطربة، وشاهد انحطاط المسلمين من كل ناحية من نواحي الحياة، فبعد أن كان المسلمون من قبل أصحاب الأمر والنهي في البلاد، انتُزِعت الحكومةُ من أيديهم، فصاروا عُرضة للنهب والاستبداد، أما غير المسلمين فإنهم كانوا أصحاب تجارة، فلم يتأثروا بتغير نظام الحكم، وقرر بعض المسلمين نتيجة لكراهية الإنكليز مقاطعة تعليم الإنكليزية والعلوم الحديثة، فتأخروا في كثير من مجالات الحياة، أما غيرهم فقد نالوا السبق في ميادين التعليم والسياسة والاقتصاد والوظائف.

ولذلك رأى العلامة عبد الحي أن المدخل إلى نهضة المسلمين، وعودتهم إلى مكانهم الطبيعي في الحياة، وتبليغ رسالتهم إلى العالم، يكون بالفهم الصحيح للدين الإسلامي والعمل بتعاليمه، والاهتمام بالعلم، مع الفهم للبيئة التي يعيشون فيها، وما يطالِب به العصر والمحيط.

ورأى أيضًا أن أول وهن أصاب المسلمين إنما كان بسبب انعزال العلماء، وانسحابهم من ميدان الحياة، وعدم القيام بتوجيه الأمة.

ومن هنا وجد العلامة عبد الحي في حركة «ندوة العلماء» - وهي جمعية للعلماء

المجددين – صورة لفكره، فاهتم بأمورها إلى آخر حياته، بصفته رئيسًا للندوة، فقد كانت حياته تصويرًا صادقًا تجلَّت فيه ملامح عالم مصلح، ومفكر حر، وأديب ناقد، يجمع بين الصمود والانفعال، ويفهم متطلبات العصر وتحدياته، فمثّل عصره بشخصيته، ومثل ماضيه العريق بمؤلفاته، فكان بذلك دعامةً أساسيةً لحركة ندوة العلماء، حتى تخرّجَ فيها العلماء والأدباء الذين زادوا في ثروة العلوم الإسلامية، وخدموا اللغة العربية واللغة الأردية، وأسسوا مجمعًا علميًّا إسلاميًّا باسم «دار المصنفين» وألفوا كتبًا ذات شهرة عالمية.

وقد سار الشيخ الندوي على نفس نهج والده العظيم في الاهتمام بندوة العلماء في سبيل خدمة الإسلام وتقدم المسلمين في مجالات العلم والفكر والعلم.

أما مؤلفات العلامة عبد الحي فهي كثيرة، ومن أهمها: كتابه: «نزهة الخواطر» في ثمانية مجلدات في تراجم علماء الهند[4]، وعددهم (4500) شخص جمعها في ثلاثين سنة، فهو بتأليفه ذلك الكتاب الموسوعيّ استحقَّ أن يسمَّى «ابن خلكان الهند»، وكتابه: «الثقافة الإسلامية في الهند»، وكتابه: «الهند في العهد الإسلام»، وكُلّها كتب تاريخية، لها قيمتها عند أهل الاختصاص. وله كتب في الحديث والفقه منها: «تهذيب الأخلاق»، و«قانون في انتفاع المرتهن بالمرهون»، و«الغناء وحكمُه في الشرع» وكلها بالعربية.

وله كتاب: «ياد أياد» في تاريخ إقليم «حجرات»، وكتاب في تاريخ الشعر الأردي باسم: «كل رعنا» أي الوردة الرشيقة يدرّس في عدة جامعات، هذا

(4) صدر منه طبعة منقحة ومحققة بصورة جديدة، وإخراج جديد، بتقديم وتعليق ابنه الشيخ أبي الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ. عن دار ابن حزم في بيروت بعنوان: «الإعلام بمن في الهند من الأعلام»، في ثمانية أجزاء، نشرته دار عرفات بالهند.

بالإضافة إلى رسائل في التعليم الديني والإصلاح الخلقي والاجتماعي بالأردية، منها: رسالة «إصلاح» في صلة الرحم، وله كتب مفيدة لأبناء المسلمين منها: «تعليم الإسلام»، و«نور الإيمان» وغيرها.

وكان العلامة عبد الحي يقوم بتدريس القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب والطب، لكنّه ترك تدريس الأدب والطب في السنوات الأخيرة من حياته. واستمر في تدريس الحديث الشريف، حتى توُفي يوم الجمعة 15 جمادى الآخرة 1341هـ الموافق 2 فبراير - شباط 1923م رَحِمَهُ اللَّهُ.

وتزوج العلامة بزوجتين: فالزوجة الأولى هي «السيدة زينب» بنت السيد «عبد العزيز الحسني الهنسوي» التي كانت ابنة خاله، تزوجها منذ 1309هـ، لكنّها توفيت بعد عشر سنوات سنة 1319هـ رَحِمَهَا اللَّهُ. وتركت له ولدًا وحيدًا هو الدكتور السيد عبد العلي الحسني أخو الشيخ الندوي.

أما زوجته الثانية فهي «السيدة خير النساء» بنت السيد «ضياء النبي الحسني»، وتزوجها سنة 1322هـ، وهي أم الشيخ الندوي وأم بنتين هما: السيدة أَمَةُ العزيز، والسيدة أَمَةُ اللَّه عائشة.

والدة الشيخ: وهي «السيدة خير النساء بنت ضياء النبي الحسني» كانت تحفظ القرآن الكريم، ونُشرت لها عدة كتب إسلامية، ومجموعتان في الشعر، مجموعة قصائد في الدعاء والمناجاة إلى اللَّه باسم «باب الرحمة»، ومجموعة قصائد في مدح الرسول ﷺ باسم: «مفتاح باب الرحمة»، ولها كتبٌ في تعليم النساء والأولاد في الأمور الاجتماعية منها: كتاب: «الذائقة»، وكتاب: «حسن المعاشرة»، وكتاب: «الدعاء والقدر»، وفي سنة 1366هـ قامت بزيارة بيت اللَّه الحرام، ومكثت بجوار

الحرمين الشريفين نحو ستة أشهر منشغلة بالعبادة، وكانت تتميز بين سيدات أسرتها بقيام الليل، وكثرة الدعاء، والمناجاة إلى اللَّه، توفيت في 7 جمادى الآخرة 1388هـ رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

الأخ الكبير للشيخ: هو الدكتور السيد «عبد العلي بن عبد الحي الحسني» طبيب، تخرّج في جامعة «لكهنو»، كما درس العلوم الإسلامية في دار العلوم بندوة العلماء، ثم أصبح مديرًا لندوة العلماء وأمينها العام، واهتم بتربية أخيه الشيخ الندوي تربية دينية منذ أن أصبح يتيمًا في التاسعة من عمره، وله كتاب في: «جغرافية الجزيرة العربية» وتوفي يوم 21 ذي القعدة 1380هـ الموافق 7 نوفمبر - تشرين الثاني 1961م رَحِمَهُ اللَّهُ. وهو والد السيد محمد الحسني مؤسس مجلة «البعث الإسلامي» والكاتب المعروف.

الأخت الكبرى للشيخ: هي «السيدة أمة العزيز بنت عبد الحي» ولدت سنة 1324هـ - 1906م كانت سيدة صالحة كثيرة العبادة، لها كتاب «في السيرة النبوية»، ورسائل أهمها: «سيرة أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا»، و«سيرة أسماء بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا».

وهذه السيدة رَحِمَهُمَا اللَّهُ هي والدة أربعة هم أولادها: الشيخ السيد «محمود حسن» رَحِمَهُ اللَّهُ، والشيخ «محمد الثاني» رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي كان كاتبًا وشاعرًا، ومن مؤلفاته: «سيرة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي» رئيس جماعة التبليغ، و«سيرة العلامة أحمد السهارنفوري» صاحب كتاب: «بذل المجهود في شرح أبي داود»، وهي كذلك والدة: فضيلة الشيخ السيد «محمد الرابع» الحسني - مد اللَّه في عمره - عالم باحث محقق، وكاتب أديب، وهو الآن بعد خاله رئيس ندوة العلماء، وأمين المجمع الإسلامي العلمي، وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ونائب رئيسها، وقد

عرضت عليه رئاستها، فاعتذر حَفِظَهُ اللَّهُ. وهي أيضًا والدة: الأستاذ السيد «واضح رشيد» الحسني الندوي رئيس تحرير جريدة «الرائد» بالعربية، وكلهم علماء وأدباء، وأصحاب مؤلفات إسلامية، بارك اللَّه في حياتهم لخير الإسلام والمسلمين.

الأخت الثانية للشيخ: وهي «السيدة أَمَةُ اللَّه تسنيم المعروفة باسم عائشة» كانت سيدة فاضلة ومن كتبها: «زاد سفر» ترجمة أردية لكتاب «رياض الصالحين» ويدرّس في المدارس الإسلامية بالهند. وكتاب: «موج تسنيم»، ولها قصائد في الدعاء والمناجاة إلى اللَّه، وكانت رئيسة تحرير مجلة «رضوان» وهي مجلة السيدات المسلمات بالأردية في الهند، وتوفيت سنة 1396هـ رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

ابن الأخ للشيخ: وهو «السيد محمد بن عبد العلي بن عبد الحي الحسني» كان كاتبًا بارعًا وأديبًا موهوبًا، وقد أنشأ مجلة «البعث الإسلامي»، وكان رئيس تحريرها حتى توفي يوم 17 رجب 1399هـ، وعمره 44 عامًا رَحِمَهُ اللَّهُ.

خال الشيخ: وهو «السيد عبيد اللَّه الحسني» رَحِمَهُ اللَّهُ، الحافظ للقرآن الكريم، وقد أثر كثيرًا في ثقافة ابن أخته الشيخ الندوي وتربيته الخُلُقية والعقلية، ذكر ذلك في كتابه: «براني جراع» أي: المصابيح القديمة.

خالة الشيخ: وهي «السيدة صالحة بنت ضياء النبي الحسني» كانت تحفظ القرآن الكريم، وتنشد القصائد الدينية بصوت جميل مؤثر على السيدات، وتدعوهن إلى طاعة اللَّه، ومحبة رسوله ﷺ، واتباع سنته، رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

زوجة الشيخ: هي ابنة خاله السيد أحمد سعيد الحسني، وحفيدة السيد ضياء النبي الحسني، وابنة بنت السيد عبد الرزاق كلامي مؤلف كتاب: «صمصام الإسلام» وترجمة: «فتوح الشام» للواقدي، سيدة صالحة شاركت زوجها حياته في

السرَّاء والضرَّاء، وخدمته بكل إخلاص ومحبة، جزاها اللَّه خيرًا كثيرًا.

ثالثًا - أهم الكتب التي تأثر بها:

ذكر مؤرخو الشيخ أنه تأثر بعدة كتب في بداية حياته، كان لها تأثيرها الخاص في تفكيره وذوقه ومسلكه، أهمها:

1 - «صمصام الإسلام» لمؤلفه «السيد عبد الرزاق الحسني» - عم والد الشيخ - والكتاب ترجمة منظومة لكتاب: «فتوح الشام» للواقدي.

2 - «مسدس حالي» لصاحبه «ألطاف حسين حالي»، وهو كتاب منظوم أيضًا، والمسدس معناه: السداسيات، وهو ضرب من الشعر تشتمل كل قطعة - منه - على ثلاثة أبيات وستة أشطر، نظمه الشاعر في ثورة فكرية قد عمت الهند وعمت العالم الإسلامي.

3 - «سيرة رحمة للعالمين» لمؤلفه القاضي محمد سليمان المنصور الفوري.

4 - «الفاروق» للعلامة شلبي النعماني، في سيرة الخليفة الثاني الراشد عمر بن الخطاب.

5 - «قيام الليل» لمحمد بن نصر المروذي البغدادي.

6 - تفسير «سورة النور» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

7 - «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن قيم الجوزية.

8 - «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» لوالد الشيخ عبد الحي الحسني، وقد طبع أخيرًا باسم: «الإعلام بمن في الهند من الأعلام».

9 - «مذهب وعقليات» للأستاذ عبد الباري الندوي، وقد نقله إلى العربية الأستاذ

واضح رشيد الندوي بعنوان: «بين الدين والعقل».

رابعًا - أبرز أساتذة الشيخ الندوي:

1 - الشيخ خليل اليماني:

من أبرز أساتذة الشيخ الذين كان لهم أثر في حياته: الشيخ خليل بن محمد اليماني 1386هـ.

كان من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم النجباء بطابعهم، يقول عنه سماحة الشيخ الندوي: «لقد كان الشيخ فريدًا، لا يوجد له مثيل في تطعيمه للطلاب بذوقه ورأيه، فكان يملك صلاحية غريبة مدهشة في صبغ الطلاب بأفكاره وآرائه، بحيث تتغلغل في أحشائهم، وتمتزج بلحومهم ودمائهم، ونفخ الروح في الكتاب الذي يدرّسه، وإنشاء الذوق الصحيح والملكة الصالحة في الفن الذي يتناوله، وتقريب الطلاب إلى مؤلف الكتاب ذوقًا ومسلكًا ومشربًا، لقد كان نادرة في هذا الأمر، لا يوجد مثله في الآلاف إلا الواحد بعد الواحد من الأساتذة البارعين وأصحاب النبوغ الماهرين، وهي ملكة موهوبة وليست بمكتسبة، لقد شاهدت في الشيخ ملكة عجيبة في التذوق الصحيح للعربية وآدابها ولغتها»[5].

2 - الدكتور تقي الدين الهلالي:

ومنهم: العلامة الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي المغربي.

فقد كان من كبار علماء العربية في هذا العصر، يقول عنه الشيخ: «والواقع أن العمل الذي بدأ به الشيخ خليل من نشر الطرق الصحيحة لتعليم العربية وإنشاء ذوقها وملكتها، قد بلغ كمال على يد الأستاذ الهلالي، وقد استفدتُ منه كثيرًا في غير

(5) «في مسيرة الحياة» (1/ 78 - 79)، طبع دار القلم، دمشق.

نظام، فكنتُ أحضر إليه يوميًّا، وانتفعت بصحبته ومجالسته، ولقد قرأت عليه «ديوان النابغة» بنظام، وقيدتُ فوائده ونكته، وكان يعطف عليَّ بصفة خاصة لأجل العلاقة بأخي الأكبر والشيخ خليل»[6].

3 - العلامة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي (1361هـ):

ومنهم: العلامة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي.

يقول الشيخ عنه: «انخرطتُ في سلك الطلاب الندويين لدروس الحديث الشريف التي كان يلقيها شيخ الحديث العلامة الشيخ حيدر حسن خان الطونكي بدار العلوم ندوة العلماء، وقرأت على الشيخ «الصحيحين» البخاري ومسلم، و«سنن أبي داود»، و«سنن الترمذي» حرفًا حرفًا، وقرأتُ عليه شيئًا من «تفسير البيضاوي» أيضًا[7].

4 - المفسِّر الكبير الشيخ أحمد اللاهوري (1381هـ):

ومنهم المفسر الكبير الشيخ أحمد اللاهوري.

قرأ عليه الشيخ الندوي التفسير، ودروسًا من كتاب: «حجة اللَّه البالغة» للشيخ ولي اللَّه الدهلوي[8].

5 - الشيخ المحدّث حسين أحمد المدني (1377هـ):

ومنهم: الشيخ المحدث حسين أحمد المدني المعروف بـ «شيخ الهند»، وأحد قادة حركة التحرير ومقاومة الإنكليز، ورئيس «جمعية علماء الهند».

---

(6) المرجع السابق (1/ 98).

(7) «في مسيرة الحياة» (1/ 94).

(8) المرجع السابق (1/ 106).

قرأ عليه الشيخ الندوي الحديثَ في الجامعة الإسلامية دار العلوم – ديوبند، في الفترة التي التحق بها الشيخ لينهل من علومها، ويأخذ عن كبار شيوخها، والشيخ المدني هو شيخ الحديث فيها. يقول عنه الشيخ: «وكانت تغشى دار الحديث غاشية من الدين، وسحابة من الروحانية، ولا يزال يرنُّ في أذنيَّ صوت الشيخ العذب الرنان، ولحنه العربي الجميل»(9).

خامسًا – أبرز الشخصيات المعاصرة التي أثرت في حياته:

1 – الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي (1303هـ – 1362م):

الداعية الكبير، والمجدد العظيم، الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، كان من أكابر الدعاة الذين عرفهم العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر، أسس «جماعة الدعوة والتبليغ»، وقد انتشر دعاتها ورجالها اليوم في العالم، وهي في نشاط مستمر، وغدوٍّ ورواح في الأقطار الإسلامية وفي أوروبا وأمريكا واليابان، وبلدان آسيا وإفريقيا. وكان لقاؤه به نقطة تحولٍ في حياته.

يقول الشيخ الندوي: «أكثر من تأثرت به هو إمام الدعوة إلى اللَّه الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي، كأنَّ هذا الرجل مأمور من اللَّه، لا أقول عن طريق الرسالة أو الوحي، ولكنّه كان مقيّضًا لهذا الأمر، وقد استولت عليه هذه الفكرة حتى ذابَ فيها، ودعا إلى الاتصال بالشعب اتصالًا مباشرًا، وتوجيه الدعوة إليه، ولفت نظره، واستقطابه إلى رسالة اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والعمل بالإسلام وبشريعته وبأحكامه، وانتشرت هذه الدعوة لا في الهند فقط، ولكن في القارة الآسيوية، ثم انتقلت إلى أوروبا وأمريكا، ولا تزال هذه الدعوة قائمة، وهي من أكثر الدعوات تأثيرًا

(9) «شخصيات وكتب» للشيخ الندوي (ص 27)، ط. دار القلم – دمشق.

وإنتاجًا»[10].

وقد بدا تأثر الشيخ بهذه الدعوة منذ زيارته لمصر، فقد رأيته حين زرت معه مدينة «نبروه» في ريف الوجه البحري، بعد أن ألقى كلمته التي تفيض نورًا وروحانية، دعا الناس إلى المبيت في المسجد، بنية الاعتكاف وقيام الليل، واستجاب له الكثيرون، ولا ريب أن هذا التوجه من آثار دعوة التبليغ.

2 - الإمام الشهيد حسن البنا (1906م - 1949م):

وهو مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، وإن كان الشيخ الندوي لم يقدر له لقاء الشيخ في حياته، وكان قد عزم على لقاء الشيخ حسن البنا، ولكنّ اللَّه تعالى لم يشأ ذلك، إلا أنه تعرّف على الشيخ من خلال تلامذته وجماعته وآثاره، وبثَّ إليهم آماله وآلامه، ونصح لهم بما ينبغي أن لا يغفلوا عنه.

وأشهد أنه حينما زار مصر سنة (1951م)، وزارنا في منزلنا مع بعض شباب الإخوان، كان حريصًا غاية الحرص على أن يسمع منا عن الشيخ البنا كل ما نعرفه عنه بالمشاهدة أو السماع، وكان يصغي إلينا في ذلك كل الإصغاء. فقد وجد البنا قريبًا من مشربه الذي يجمع بين السلفية والصوفية.

وقد تجلى ذلك فيما كتبه الإمام أبو الحسن عن الإمام البنا، حين قدّم لكتابه الشهير: «مذكرات الدعوة والداعية». وقد نقلت فقرة حية منه في كتابي: «الإخوان المسلمون: سبعون عامًا في الدعوة والتربية والجهاد».

3 - الشيخ عبد القادر الرائيبوري (1382هـ):

كان نموذجًا حيًّا من نماذج الزوايا السنوسية[11]، وكان من كبار العلماء

(10) مجلة «المجتمع» الكويتية، عدد رقم (1338).

الربانيين، ومن أولئك القادة الروحيين والعلماء الصالحين، الذي يحتاج إليهم المسلمون في كل زمان للقيادة والتوجيه والاستفادة من بركاتهم، وطيب أنفسهم، تلقّى الشيخ الندوي منه التربية الروحية واستفاد من صحبته ومجالسه.

4 - **الدكتور محمد إقبال** (1876 - 1938م):

هو أشهر الشعراء والفلاسفة والمفكرين المسلمين في الهند في القرن الرابع عشر الهجري، وتلمح في أدب الشيخ الندوي وذوقه الرفيع تأثره الواضح في كتاباته بشاعر الإسلام محمد إقبال، كان خلاصة ذلك تلك الدراسة التي كتبها الشيخ الندوي بعنوان: «روائع إقبال» وكثيرًا ما يستشهِدُ بروائع من أمثاله وحكمه في كثير من كتاباته ومؤلفاته.

وقد ألقى محاضرة قيمة عن «إقبال» في كلية «دار العلوم» عند زيارته لمصر.

سادسًا - أبرز الملوك والرؤساء العرب والعجم الذين قابلهم الشيخ الندوي:

1 - قابل الملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن سنة (1951م).

2 - قابل حفيده الملك حسين بن طلال سنة (1973م).

3 - قابل الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما كان أميرًا في سنة (1963م)، ثم لما صار ملكًا عدة مرات.

4 - قابل الملك فهد بن عبد العزيز حَفِظَهُ ٱللَّهُ عندما كان وليًّا للعهد، ثم لما صار ملكًا.

5 - قابل الملك الحسن الثاني ملك المغرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (1976م).

6 - قابل الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم إمارة الشارقة، سنة (1974م).

---

(11) ذكر المؤلف للسنوسية هنا للتشبيه فقط، إذ لا علاقة ولا صلة للشيخ بالحركة السنوسية.

7 – قابل الرئيس علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية اليمنية، سنة (1984م).

8 – قابل الرئيس محمد ضياء الحق رئيس جمهورية باكستان رَحِمَهُ اللَّهُ سنة (1984م).

وكذلك قابل عددًا من وزراء العالم الإسلامي وزعمائه وعلمائه الكبار.

سابعًا – أهم المنظمات والجمعيات والجامعات التي كان الشيخ الندوي رئيسها أو عضوًا فيها:

1 – أمين ندوة العلماء العام، ورئيس دار العلوم التابعة لها.

2 – عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

3 – عضو المجلس الأعلى للمساجد بمكة المكرمة.

4 – عضو المجلس الأعلى العالمي للدعوة والإغاثة بالقاهرة.

5 – رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

6 – رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنو «الهند».

7 – رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية لعموم الهند.

8 – رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند.

9 – رئيس مجمع دار المصنفين بأعظم كره «الهند».

10 – رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية.

11 – عضو المجلس الاستشاري بالجامعة الإسلامية دار العلوم – ديوبند «الهند».

12 – عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية «باكستان».

13 – عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

14 – عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

15 – عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

16 – عضو مجمع اللغة العربية بالأردن.

17 – عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت» بالأردن.

ثامنًا - أهم الجوائز والشهادات التي مُنحت للشيخ الندوي اعترافًا بخدماته العلمية والدينية:

1 – جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام (1980م).

2 – شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير (1981م).

3 – جائزة الشخصية الإسلامية لعام (1419هـ) التي منحت لسماحته من حكومة دبي.

4 – جائزة سلطان بروناي للدراسات الإسلامية عام (1420هـ).

تاسعًا - أبرز الأعلام الذين جرت بينهم وبين سماحته مراسلات:

أ- الأساتذة والشيوخ الكبار:

1 – الشيخ خليل بن محمد اليماني.

2 – الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي.

ب- كبار العلماء والمؤلفين والأدباء في العالم العربي:

1 – الشيخ السيد علوي عباس المالكي.

2 – الشيخ عبد اللَّه بن حميد.

3 – الشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه بن باز.

4 – الشيخ محمد بهجة البيطار.

5 – الشيخ محمد بهجة الأثري.

6 – الشيخ عبد اللَّه بن علي المحمود.

7 – الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك.

8 – الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

9 – الشيخ علي الطنطاوي.

10 – الأستاذ البهي الخولي.

11 – الدكتور أحمد أمين.

12 – الأستاذ سيد قطب الشهيد.

13 – الأستاذ محمد المبارك.

14 – الأستاذ محمد الغزالي.

15 – الأستاذ محمود محمد شاكر.

16 – الأستاذ محمد أسد.

17 – الأستاذ أحمد الشرباصي.

18 – الأستاذ أنور الجندي.

19 – الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا.

20 – كاتب هذه السطور.

جـ– القادة والزعماء:

1 – الحاج محمد أمين الحسيني.

2 – الدكتور مصطفى السباعي.

3 – الشيخ محمد السرور الصبان.

4 – الشيخ محمد صالح القزاز.

5 – الشيخ محمد محمود الصواف.

6 – الدكتور سعيد رمضان.

د– الملوك والأمراء والوزراء:

1 – الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود.

2 – الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود.

3 – الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود.

4 – سمو الأمير مساعد بن عبد الرحمن آل سعود.

5 – الأمير الحسن بن طلال.

عاشرًا – حياته العملية وجهوده الدعوية:

– عُيّن مدرِّسًا في دار العلوم لندوة العلماء عام (1934م)، ودرّس فيها التفسير والحديث، والأدب العربي وتاريخه، والمنطق.

– استفاد من الصحف والمجلات العربية الصادرة في البلاد العربية – والتي كانت تصل إلى أخيه الأكبر، أو إلى دار العلوم ندوة العلماء – مما عرَّفه على البلاد العربية وأحوالها، وعلمائها، وأدبائها، ومفكريها، عن كَثَب.

– بدأ يتوسع في المطالعة والدراسة – خارجًا عن نطاق التفسير والحديث والأدب والتاريخ أيضًا – منذ عام (1937م)، واستفاد من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب، وفضلاء الغرب، والزعماء السياسيين.

– قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام (1939م) تعرّف فيها على الشيخ المربي «عبد القادر الراي بوري»، والداعية المصلح الكبير «محمد إلياس الكاندهلوي»، وبقي على صلة بهما، فتلقّى التربية الروحية من الأول وتأسَّى بالثاني في القيام بواجب الدعوة وإصلاح المجتمع، فقضى زمنًا في رحلات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني.

– أسس مركزًا للتعليمات الإسلامية عام (1943م)، ونظم فيها حلقات للقرآن الكريم والسنة النبوية، فتهافت عليها الناس من الطبقة المثقفة والموظفين الكبار.

– اختير عضوًا في المجلس الانتظامي لندوة العلماء عام (1948م)، وعُيّن نائبًا لمعتمد «وكيل» ندوة العلماء للشئون التعليمية بترشيح من المعتمد العلامة السيد «سليمان الندوي» رَحِمَهُ اللَّهُ عام (1951م)، واختير معتمدًا – إثر وفاة العلامة رَحِمَهُ اللَّهُ – عام (1954م)، ثم وقع الاختيار عليه أمينًا عامًّا لندوة العلماء – بعد وفاة أخيه الدكتور السيد «عبد العلي الحسني» عام (1961م).

– أسس حركة الإنسانية عام (1951م).

- أسس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنو عام (1959م).

- شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (**u.p**) عام (1960م)، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام (1964م)، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام (1972م).

- شارك في تحرير مجلة «الضياء» العربية الصادرة من ندوة العلماء عام (1932م)، ومجلة «الندوة» الأردية الصادرة منها أيضًا عام (1940م)، وأصدر مجلة «التعمير» الأردية عام (1948م)، وتولّى كتابة افتتاحيات مجلة «المسلمون» الصادرة من دمشق - في الفترة ما بين (1958 - 1959م)، وكانت أولاها هي التي نُشرت فيما بعد بعنوان: «ردة ولا أبا بكر لها»، كما ظهرت له مقالات في مجلة «الفتح» للأستاذ محب الدين الخطيب.

أشرف على إصدار جريدة «نداي ملت» الأردية الصادرة عام (1962م)، وهو المشرف العام على مجلة «البعث الإسلام» العربية الصادرة منذ عام (1955م)، وجريدة «الرائد» العربية الصادرة منذ عام (1959م)، وجريدة «تعمير حيات» الأردية الصادرة منذ عام (1963م)، ثلاثتُها تصدر من ندوة العلماء.

حادي عشر - رحلات الشيخ:

بدأ الشيخ رحلاته في سنٍّ مبكرة، وهو في أول الشباب.

سافر إلى مدينة لاهور عام (1929م)، وكانت أول رحلة له إلى بلد بعيد، حيث تعرّف على علمائها وأعيانها، والتقى بشاعر الإسلام الدكتور «محمد إقبال» وكان قد ترجم بعض قصائده «قصيدة القمر» إلى النثر العربي.

توجّه إلى بومباي عام (1935م) لدعوة الدكتور «أمبيدكر» زعيم المنبوذين إلى

الإسلام.

قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام (1939م).

سافر للحج عام (1947م)، وكانت أول رحلة له خارج الهند، وأقام بالحجاز ستة أشهر، وتعرّف على كبار علماء الحجاز، أمثال أصحاب الفضيلة الشيوخ: «عبد الرزاق حمزة»، و«عمر بن حسن آل الشيخ»، و«السيد علوي المالكي»، و«أمين الكتبي»، و«حسن المشاط»، و«محمد العربي التباني»، و«محمود شويل»، وكانت رسالته «إلى ممثلي البلاد الإسلامية» قد طبعت، فكانت خيرَ معرّف لمؤلفها في الحجاز، وقد قرأها ذاتَ يوم «محمد الحركان» على طلابه في المسجد النبوي الشريف، واطلع فضيلة الشيخ عبد الرزاق حمزة إمام الحرم المكي على مسوّدة كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» فأعجب به، وشجّع المؤلف الناهض على نشره.

ورحل للحج مرة أخرى عام (1951م)، وتعرّف على أدبائها وكتّابها بصفة خاصة، وعلى رأسهم: معالي الشيخ «محمد سرور الصبان»، والتقى بهم عدة لقاءات كان أهمها اللقاء في بستان البخاري بمكة المكرمة الذي حضره جمع من الأدباء والصحفيين الشباب وكبار الموظفين أمثال الأساتذة: «سعيد العامودي»، و«عبد القدوس الأنصاري»، و«علي حسن فدعق»، و«محسن أحمد باروم»، و«حسين عرب»، وكانت الجلسة على حسب تعبير سماحته كأنها جلسة نقاش للطالب، قدّروا فيه مدى معرفته اللغة العربية، وسبروا غوره في دراسته ومعلوماته العامة، واطلاعه على اللغة الإنكليزية، فكانت الأسئلة حينًا عن الأدب العربي وأعلامه المعاصرين، وآخر عن الاشتراكية والأدب الإنكليزي، والحضارة الغربية وما إلى ذلك، وكانت النتيجة أن طلب منه إلقاء سلسلة أحاديث من إذاعة جدة، فألقاها

بعنوان: «بين العالم وجزيرة العرب» ثم تكررت رحلاته للبلاد المقدسة.

زار مصر للمرة الأولى عام (1951م)، وكان كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» قد سبقه إلى الأوساط العلمية والدينية، والدعوية، والأدبية، فكان خير معرّف لمؤلفه. ومكث في القاهرة ستة أشهر إلا قليلًا، وألقى سلسلة من الأحاديث والمحاضرات في مختلف النوادي والجمعيات، التي تعرّفَ فيها على شباب مصر والأوساط القديمة والجديدة، واسترعى انتباههم، والتقى فيها كبار العلماء ومشايخ الأزهر - مع شيخ الأزهر «عبد المجيد سليم»، و«محمود شلتوت»، و«أحمد محمد شاكر»، و«حسنين محمد مخلوف»، و«حامد الفقي»، و«محمد عبد اللطيف دراز»، و«محمد فؤاد عبد الباقي»، و«مصطفى صبري» شيخ الإسلام سابقًا بالدولة العثمانية، و«محمد الشربيني»، و«محمد يوسف موسى»، و«أحمد عبد الرحمن البنا» والد الشيخ حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن القادة والزعماء مع: سماحة المفتي «أمين الحسيني»، والأمير «عبد الكريم الخطابي»، واللواء «صالح حرب باشا»، ومن الدعاة والمفكرين الإسلاميين: «سيد قطب»، و«محب الدين الخطيب»، و«أحمد الشرباصي»، و«محمد الغزالي»، و«سعيد رمضان»، و«صالح العشماوي»، و«البهي الخولي»، ومن الأدباء: «أحمد أمين»، و«محمود محمد شاكر»، و«عباس محمود العقاد»، و«أحمد حسن الزيات».

وكان من أهم الأحاديث التي ألقاها محاضرة في «دار الشبان المسلمين» بعنوان: «المسلمون على مفترق الطرق»، وأخرى بعنوان: «الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند» في حفلٍ أقامه الرئيس العام لجمعيات الشباب المسلمين تكريمًا له، والثالثة حول: شعر إقبال ورسالته في كلية «دار العلوم»، والرابعة بعنوان: «الإنسان الكامل في نظر الدكتور محمد إقبال» في «جامعة فؤاد الأول» عدا محاضرات في عدد من

المراكز الدعوية والجمعيات مثل: «شباب محمد» ﷺ، و«جمية أنصار السنة المحمدية»، و«الجمعية الشرعية»، و«جمعية العشيرة المحمدية»، و«جمعية مكارم الأخلاق»، و«الرابطة الإسلامية»، وحضرت ندوة دعوية في منزل سيد قطب حول كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟». وفي الرحلة نفسها نُشرت رسالتُه بعنوان: «اسمعي يا مصر» علّقَ عليها سيد قطب قائلًا: قرأتُ «اسمعي يا مصر» ويا ليتَ مصر قد سمعت!

ونظم له الإخوان رحلات وجولات دعوية زار فيها عدا القرى والأرياف – القناطر الخيرية، وطنطا، وبنها، وحامول، وحلوان، وسنتريس، والمحلة الكبرى، ونكله، والعزيزية، وقويسنا، ونبروه، رافقه فيها ترجمان الإخوان والداعية الكبير محمد الغزالي، وذلك عدا لقاءات متكررة مع الطلاب في أروقة الأزهر والفنادق، والمنازل «ومنها: منزلنا في شبرا»، وقد سعدتُ به في زيارته للمحلة الكبرى ونبروه.

وسافر في الرحلة نفسها إلى السودان والشام والقدس والأردن، والتقى في السودان مع أعيانها وكبار رجالها، أمثال: السيد «علي ميرغني باشا»، والأستاذ «إسماعيل بك الأزهري» رئيس وزراء السودان فيما بعد – و«شوقي أسد» سكرتير «جمعية التبشير الإسلامي»، و«محمد عوض» إمام المسجد الجامع، والحاج «محمد موسى سليمان» قائد العمال ورئيس «جمعية الشبان المسلمين».

أقام في الشام (48) يومًا، قضى (24) يومًا منها في دمشق، وزار في باقيها حمص، وحماة، ومعرّة النعمان، وحلب، وحارم، فكانت فرصة للاتصال بالأوساط العلمية والدينية والأدبية المختلفة، ومقابلة شخصياتها الموقرة، وتبادل الآراء معها، فزار من مؤسسات الشام ومراكزها العلمية والأدبية مركز الإخوان المسلمين بجامع الدقاق، و«المجمع العلمي العربي» بدمشق، و«المكتبة الظاهرية»، و«مدرسة دار

الحديث»، و«جمعية التمدن الإسلامي»، وحضر إحدى جلسات البرلمان السوري المهمة المثيرة.

وألقى محاضرة في قاعة دمشق بعنوان: «شهادة العمل والتاريخ في قضية فلسطين»[12] عدا محاضرات في كلٍّ من الهيئة العلمية الإسلامية، وجمعية التمدن الإسلامي، والجمعية الغراء، ومركز الإخوان المسلمين في حمص، ومركز الإخوان بحماة، وفي اجتماع كبير بحلب.

والتقى فيها مع كبار علمائها وأدبائها أمثال أصحاب الفضيلة: «عبد الوهاب الصلاحي»، و«مكي كتاني»، و«أحمد الدقر»، و«محمد بهجة البيطار»، و«أبي الخير الميدان»، و«مصطفى السباعي»، و«محمد المبارك»، و«مصطفى الزرقا»، و«محمد أحمد دهمان»، و«أبي اليسر عابدين» حفيد العلامة «الشامي» ومفتي الجمهورية، و«أحمد كفتارو»، و«محمد سعيد البرهاني»، و«محمد علي حوماني»، و«تيسير ظبيان»، و«محمد كمال خطيب»، و«محمد كرد علي»، و«محمد عزة دروزة»، و«خليل مردم بك»، و«عبد القادر المغربي»، وكان يرافقه ويساعده في الوصول إلى الناس وزيارتهم الأستاذ «عبد الرحمن الباني» الذي كان مدرّسًا في كلية المعلمين بدمشق.

وفي فلسطين زار بيتَ المقدس، وتشرّف بزيارة المسجد الأقصى، وقضى بها الأيام الأخيرة من رمضان وصلّى العيد بها، وزار مدينة الخليل، وبيت لحم، وفي العودة منها قابل بالأردن «الملك عبد الله» ملك الأردن، وقد طُبِعت مذكراته لهذه الرحلة الطويلة بعنوان: «مذكرات سائح في الشرق العربي».

وزار الشام للمرة الثانية أستاذًا زائرًا في «كلية الشريعة» بجامعة دمشق - عام

(12) طبعت بعنوان: «العوامل الأساسية لكارثة فلسطين».

(1956م)، وأقام بها ثلاثة أشهر كان فيه على صلة وعلاقة دائمة مع علماء دمشق وأدبائها ومفكريها، وقادة الحركات والمنظمات الإسلامية، وألقى محاضراته الأساسية في الجامعة حول التجديد والمجددين في تاريخ الفكر الإسلامي، وأحاديثَ في إذاعة سوريا، كان أولها بعنوان: «اسمعي يا سوريا!»، ومحاضرة في مركز الإخوان بحلب بعنوان: «حاجتنا إلى إيمان جديد»، وكلمة في المؤتمر الإسلامي بدمشق بعنوان: «ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي»، وخطابًا أمام مدرسي الدين بالجامعة، وسافر إلى الشام مرة ثالثة عام (1964م)، والمرة الرابعة لنصف ليلة فقط عام (1973م).

سافر في هذه الرحلة - (1956م) - إلى لبنان، وزار فيها بيروت وقلمون وطرابلس، والتقى فيها مع الشخصيات الدينية والعلمية وقادة الحركة الدينية، أمثال: «محمد عمر الداعوق» مؤسس «جماعة عباد الرحمن»، و«محمد علايا» مفتي الجمهورية، و«شفيق يموت» رئيس المحكمة الشرعية، و«محمد أسد» ليوبولد فايس سابقًا - صاحب كتاب «الطريق إلى مكة»، و«مصطفى الخالدي» الداعي العامل المعروف في المجالات الاجتماعية، و«الفضيل الورتلاني» المجاهد الجزائري المعروف، وزار في بيروت مركز عباد الرحمن، وكلية الشريعة، وألقى في كلية الملك سعود - وهي مركز إسلامي ببيروت وقاعة المحاضرات والاجتماعات - محاضرة بعنوان: «الشعوب لا تعيشُ على أساس المدنيات، بل تعيش بالرسالة وتعضدها روحها وخصائصها» وزار في طرابلس الكلية الشرعية، ومركز المولوية، ومدرسة الغزالي، ومدرسة ابن خلدون ... وغيرها.

سافر في الرحلة نفسها - (1956م) - إلى تركيا ومكث فيها أسبوعين طبعت مذكراتها بعنوان: «أسبوعان في تركيا الحبيبة» ثم سافر إليها عام (1964م)، فعام

(1986م)، فعام (1989م)، فعام (1993م)، فعام (1996)، وكانت الرحلات الأربع الأخيرة لحضور مؤتمرات رابطة الأدب الإسلامي العالمية. وفي عام (1996م) كان تكريم الرابطة له في اجتماع ضم عددًا كبيرًا من الأدباء والكتاب.

سافر إلى الكويت عام (1962م) وألقى بها كلمته الرائعة بعنوان: «اسمعي يا زهرة الصحراء» ثم عام (1968م)، فعام (1983م)، فعام (1987م)، وإلى الإمارات العربية المتحدة عام (1974م) بدعوة من حاكم الشارقة الأمير الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، ثم عام (1976م)، فعام (1983م)، فعام (1988م)، فعام (1993م).

سافر إلى قطر عدة مرات سعدتُ بلقائه فيها كلها. أولاها كانت في سنة (1962م). وكانت مجرد مرور، ولم يطل مكثه بها، وقد تحدثت عنها في موضع آخر، والثانية في أواسط السبعينات، وقد ألقى محاضرة في جامعة قطر بعنوان: «دور الجامعة في تكوين الأجيال».

والثالثة لحضور «مؤتمر السنة والسيرة» الذي انعقد في أول محرم سنة (1401هـ 1980م).

والرابعة حين دُعِيَ من قِبل وزارة الأوقاف في قطر وإدارة الشئون الإسلامية فيها، وألقى محاضرته عن «قيمة الأمة الإسلامية ورسالتها»، وقد تشرّفت بالتعليق على محاضرة الشيخ، وكتبتُ مقدمة ضافية لمحاضرته حين طبعتها الوزارة في رسالة مستقلة.

هذا، وقد طُبعت أهمُّ محاضراته التي ألقاها في الخليج العربي في مجموعة بعنوان: «أحاديث صريحة مع إخواننا العرب المسلمين».

سافر على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي عام (1973م) إلى أفغانستان، وإيران ولبنان والعراق - وكان قد زار العراق للمرة الأولى عام (1956م) - وسوريا، والأردن، وكانت له في كل من هذه البلدان محاضرات وكلمات وأحاديث، وقد طُبعت مذكراته لهذه الرحلة بعنوان: «من نهر كابل إلى نهر اليرموك».

سافر بدعوة من مؤسسة آل البيت إلى الأردن عام (1984م)، وألقى محاضرات في جامعة اليرموك، وفي كلية العلوم العربية وغيرها، وزار في العام نفسه اليمنَ، وألقى محاضرات في جامعة صنعاء، وفي كلية الطيران، ومركز المدرعات، وفي بعض الجوامع، وقد طُبعت أهم محاضراته في الرحلتين بعنوان: «نفحات الإيمان بين صنعاء وعَمّان».

سافر بدعوة من رابطة الجامعات الإسلامية إلى المغرب الأقصى عام (1976م)، وقد طبعت مذكرات هذه الرحلة بعنوان: «أسبوعان في المغرب الأقصى».

وسافر إلى الجزائر لحضور «ملتقى الفكر الإسلامي» عام (1982م)، ثم عام (1986م).

وسافر إلى بورمة عام (1960م)، وإلى باكستان عام (1964م)، ثم عام (1978م) بدعوة من رابطة العالم الإسلامي لحضور مؤتمرها الآسيوي الأول، فعام (1980م)، فعام (1986م)، وقد طبعت أحاديثه في باكستان في مجموعتين بالأردية بعنوان: «أحاديث باكستان» وإلى سري لانكا عام (1982م)، وإلى بنغلاديش عام (1984م)، وطبعت أحاديثه فيها - بالأردية بعنوان: «تحفة مشرق».

كانت رحلته الأولى إلى أوروبا عام (1963م)، زار فيها: جنيف، ولوزان، وبرن، وباريس، ولندن، وكمبرج، وأكسفوردو، وكلاسكو، وأدنبره، وقابل فيها عددًا من فضلاء الغرب المستشرقين، وألقى محاضرات في كل من جامعة أدنبره وجامعة لندن، وفي اجتماعات خاصة بالمسلمين، وزار في الرحلة نفسها مدريد، وطليطلة، وأشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، من مدة إسبانية.

وكانت رحلته الثانية إلى أوروبا عام (1964م) زار فيها: لندن، وبرلين، وآخن، وميونخ، وبون.

والرحلة الثالثة كانت عام (1969م) على دعوة من المركز الإسلامي بجنيف، زار فيها: جنيف، ولندن، وبرمنغهام، ومانشستر، وبليك برن، وشيفلد، وديوزبري، وليدس، وكلاسكو، ألقى فيها محاضرات، منها محاضرة في جامعة برمنغهام، وأخرى في جامعة ليدس، وقد طبعت محاضراته وأحاديثه في أوروبا بعنوان: «حديث مع الغرب».

والرحلة الرابعة إلى لندن عام (1983م) بمناسبة تأسيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، وألقى في تلك المناسبة مقاله القيم بعنوان: «الإسلام والغرب»، ثم تكررت رحلاته إلى إنكلترا.

زار بلجيكا عام (1985م)، وسافر بدعوة من «منظمة الطلاب المسلمين في أمريكا وكندا» إلى أمريكا وكندا عام (1977م)، حيث زار نيويورك، وإنديانا بوليس، وبلومنغتن ومونهاتن، وشيكاغو ونيوجرسي، وفلادليفا وبالتمور، وبوسطن وديترويت، وسالت ليك وسان فرانسيسكو، وسان جوزيه ولو أنجلوس، ومونتريال وتورنتو وواشنطن، وألقى محاضرات في كل من جامعة

كولومبيا، وجامعة هارفورد، وجامعة ديترويت، وجامعة جنوب كاليفورنيا، وجامعة أوتا، وفي قاعة الصلاة بالأمم المتحدة، وفي اجتماعات المسلمين الخاصة طبعت أهم محاضرات هذه الرحلة بعنوان: «أحاديث صريحة في أمريكا».

وزار أمريكا مرة أخرى عام (1993م).

وسافر بدعوة من حركة «أبيم» - حركة الشباب المسلم - إلى ماليزيا عام (1987م)، فزار كوالالمبور، وكوالاترنكانو، وألقى محاضرات في الجامعة الوطنية، والجامعة التكنولوجية، والجامعة الماليزية، والجامعة الإسلامية العالمية، ومركز «حركة أبيم» ومركز الحزب الإسلامي، ومعهد التربية الإسلامية واجتماعات عامة للمسلمين.

سافر إلى طاشقند وسمرقند، وخرتنك وبخارى عام (1993م) بمناسبة حضور تأسيس مركز علمي تذكارًا للإمام البخاري.

أقام سنتين في مقتبل شبابه وذلك بعد وفاة أبيه - في قصر الأمير «نور الحسن» نجل الأمير «صدّيق حسن خان» قد أفادته هذه الإقامة إذ أزالت عن عينه المهابة للزينات والزخارف، ولم تبهر عينه قط مظاهر الإمارة والثراء.

مقابلاته مع الملوك والرؤساء:

قابل الملك عبد اللَّه بن الشريف حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية ثلاث مقابلات عام (1951م)، لفتَ فيها نظره إلى رعاية المسجد الأقصى، والعناية به، وباللاجئين الفلسطينيين، والتقى بالملك حسين بن طلال عاهل المملكة الأردنية عام (1973م) مع وفد من رابطة العالم الإسلامي.

وجّه إلى الأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود رسالة عام (1947م)، طبعت

بعنوان: «بين الجباية والهداية»، والتقى به ملكًا للمملكة العربية السعودية في جلسة تأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام (1962م).

كان أول لقائه مع الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود عام (1963م)، والتقى به ملكًا عدة لقاءات، كما قابل الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود، والملك فهد بن عبد العزيز آل سعود في زيارات مختلفة، ووجه إليهم رسائل دعوية، أبدى فيها آراءه وملاحظاته، ونبههم إلى أنَّ للحجاز شخصية خاصة ورسالة ومكانة ولا بد من المحافظة عليها في كل عصر.

قابل الملك الحسن الثاني عاهل المملكة المغربية عام (1976م)، وحدّثه عن انتظار المسلمين واحتياجهم إلى قائد عصامي، مؤمن ألمعي، يمتاز بإخلاصه ويقينه، وعزمه الراسخ، وقلبه الواثق.

التقى بالشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة عدة لقاءات، وسافر بدعوة منه إلى الإمارات العربية المتحدة عام (1974م)، وقد زاره الشيخ سلطان في مقره بلكهنو عام (1980م).

قابل الرئيس علي عبد الله صالح رئيس الجمهورية اليمنية في صنعاء عام (1984م).

زار الجنرال محمد ضياء الحق رئيس الجمهورية الإسلامية الباكستانية في كراتشي عام (1984م)، فقدم إلى فخامته تمثال قبة الصخرة الرخامي، الذي كان أُهدي إلى سماحته كهدية تذكارية من كلية العلوم بالأردن - تلميحًا منه بأن استخلاص المسجد الأقصى المبارك مسئولية من مسئوليات رئيس مؤمن لبلد مسلم كبير كباكستان، وكان آخر لقائه مع الرئيس عام (1986م).

❋ ❋ ❋

ملامح الشخصية الندوية

شخصية الشيخ أبي الحسن شخصية فريدة النمط، نادرة المثال، جمع اللَّه فيها من الفضائل والمواهب ومكارم الأخلاق، ما يعز توافره في إنسان، إلا من اختصه اللَّه بفضل من عنده، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء.

مواهب عقلية وروحية وأخلاقية:

لقد آتاه اللَّه من المواهب العقلية ما لا يخفى على أحد، كما بدا ذلك منذ طفولته وصباه. ولا غرو أن ظهرت نجابتُه منذ سنٍّ مبكرة.

وإذا رأيت من الهلال نموّه أيقنت أن سيصير بدرًا كاملًا!

ولقد فتحت له هذه المواهب كنوز المعرفة، وأبواب الثقافة، وألوان العلم، فنهل منها واغترف، من علوم النقل والعقل، ومن تراث السلف، ومعارف الخلف، ومن علم الشرق وعلم الغرب، حتى تكوّنت شخصيته العلمية الثقافية الرحبة الآفاق، الممتدة الظلال والأنوار.

وهذه المواهب هي التي أتاحت له - بعد فضل اللَّه وتوفيقه - إجادة عدد من اللغات، منها: الأردية والهندية والفارسية والعربية والإنكليزية؛ وهذه كلها نوافذ يطل منها على ثقافات أمم كبيرة، لكل منها وزنها وقيمتها وتاريخها وأثرها.

ولكن الشيخ لم يكن عظيمًا بنبوغه العلمي والثقافي فحسب، بل كان عظيمًا بما وهبه اللَّه تعالى من محاسن الصفات، ومكارم الأخلاق، التي ورثها من جده المصطفى ﷺ، الذي بعثه اللَّه ليتمم مكارم الأخلاق، والذي وصفته أم المؤمنين

عائشة، فقالت: «**كان خُلُقُه القرآن**»(13).

لقد كان ﷺ قرآنيَّ الأخلاق، محمديَّ السلوك، حسنيَّ السيرة، ربانيَّ الغاية، إسلاميَّ المنهج والفكر والهوى، فقد كان هواه وشعوره وعواطفه وميوله تبعًا لما جاء به محمد ﷺ بلا افتعال، ولا مباهاة ولا إذلال، كأنما هو مجبول على ذلك، نشهد ذلك منه ونُحِسُّه، ولا نزكيه على الله ﷻ، فكأنما جعل شعاره قول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُ**﴾ [الأنعام: 162، 163].

كان إنسانًا بكل ما تسعه كلمة الإنسانية، ربانيًّا بكل ما تعطيه كلمة الربانية، أخلاقيا بكل ما تفهمه كلمة الأخلاقية، مسلمًا بكل ما تفيده كلمة الإسلامية.

مِنَ الرِّجَالِ الْمَصَابِيحِ الَّذِينَ هُمُو كَأَنَّهُمْ مِنْ نُجُومٍ حَيَّةٍ صُنِعوا!
أَخْلاقُهُمْ نُوْرُهُمْ، مِنْ أيِّ نَاحِيَةٍ أَقْبَلْتَ تَنْظُرُ فِي أَخْلاقِهِمْ سَطَعُوا!

كان لا يتكلّف في مأكله ولا مشربه ولا ملبسه ولا مسكنه، ولا في شيء من شئون حياته، بل هو على سجيته، كأنّما وضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾ [ص: 86].

كان عَفَّ اللسان والقلم، لم أسمعه يجرح أحدًا بكلمة، أو يتحدث عن أحد بسوء، متمثلًا الحكمة القائلة: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

ولكن هذا لا يمنعه من نقد الأفكار والاتجاهات التي يرى أنها تجاوزت الصواب، كما رأيناه ينقد العلامة المودودي، والشهيد سيد قطب، رَحِمَهُمَا اللهُ – على فضلهما ومنزلتهما عنده – بيد أنه نقد العالم العادل، لا نقد الحاقد المتحامل.

---

(13) رواه مسلم.

لقد نقد الأفراد، نقد الجماعات، ونقد الاتجاهات، نقد الحكومات، ولكن بأدبٍ جمٍّ، وعبارة رقيقة، وبلغة المحب المشفق، والناصح الأمين، لا بلغة المتعالي على الآخرين، أو الحاقد عليهم، أو المتربص بهم.

كان من أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأحرصهم على ما عند اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فما عند الناس ينفد، وما عند اللَّه باق. فلا المال يغريه، ولا الجاه يفتنه، ولا الشهوات تأسره، فقد كان - بإيمانه ويقينه - أكبرَ منها جميعًا.

زهد الشيخ:

والحقيقة أني لم أرَ في عصرنا مثله في زهده في الدنيا، وتقلله من متاعها، ورفضه لزخارفها، واستعلائه على مغرياتها. وقد كان يمكنه أن يعيش مرفَّهًا بحكم منزلته في قومه وفي العالم، وقد عاش فترة من عمره في قصر الأمير نور الدين ابن الأمير السلفي صديق خان ملك «بهوبال» المشهور، وهيئت له وسائل التنعم والرفاهية، وكان باستطاعته أن يستمرَّ في هذا اللون من العيش الرغيد، والحياة المريحة لو أراد، واتجهت إليه نيته. ولكنه كان يريد لنفسه حياةً غير هذه الحياة. إنها حياة أرباب القلوب من الربانيين الذين يعيشون في الدنيا ولا تعيش الدنيا فيهم، ويملكون الدنيا ولا تملكهم. كأنما جاء من العصر الأول إلى هذا العصر، ليمثِّل إبراهيم بن أدهم، أو الفُضيل بن عياض، أو الجُنيد بن محمد، الذين يحيون في الدنيا بقلوب أهل الآخرة، ويمشون فوق الأرض، وبصائرهم ترنو إلى السماء. ولهذا أبى الشيخ رحمة اللَّه عليه إلا أن يعيش عيشة هؤلاء السلف الزاهدين، والأئمة الصالحين، فكأنما هو قبسٌ من نور جدّه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، التي أتته الدنيا، فقال لها: إليك عني، غري غيري. قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها. آه من قلة الزاد، وبُعدِ السفر، ووحشة الطريق!

لقد كان يرفض المكافآت التي تُعطى لأمثاله في مقابلة جهود يقوم بها، وهي مشروعة، ويقبلها غيرُه من العلماء، ولكنّه آلى على نفسه أن يقدِّم ما عنده من علم وجهد للَّه تعالى، لا لعرضٍ من الدنيا.

حدّثني الإخوة السوريون أنه عندما دُعي إلى سوريا أستاذًا زائرًا لجامعة دمشق، ولكلية الشريعة فيها خاصة، في عهد عميدها الداعية الفقيه المربي القائد الدكتور مصطفى السباعي، ألقى عددًا من المحاضرات الأصيلة العميقة، تعب عليها، وبذلك جهدًا لا يُنكَر في إعدادها، وكان لها تأثير عميق، ووقع مشهود بين الأساتذة والطلاب، وكان موضوعها: «التجديد والمجددون في تاريخ الإسلام»، وهي التي ظهرت بعد ذلك تحت عنوان: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

وعلى عادة الجامعة صَرَفَت له مكافأة، كما تصرف لكل الأساتذة الزائرين، وهنا كانت المفاجأة، فقد رفض الشيخ أن يأخذ مكافأة على محاضراته، ووقع الإداريون والماليون في جامعة دمشق في حَيْص بَيْص، كما يقولون، فقد صرف المبلغ من بنده في ميزانية الجامعة، ولا سبيل إلى إعادته، ولم يجدوا حلًّا إلا أن يُتبرَّع به للطلاب الفقراء.

وذكر الأستاذ محمد المجذوب رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة الشيخ في كتابه: «علماء ومفكرون عرفتُهم» أنه لا يذيع سرًّا إذا قال: إن الشيخ رفض أن يأخذ من رابطة العالم الإسلامي ما تدفعه من مكافآت لأعضاء المجلس التأسيسي، عن حضورهم جلساته كلَّ عام.

ومن المعروف أن الشيخ حين أُعطيَ جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وكان مقدارها ثلاثمائة ألف ريال سعودي في ذلك الوقت - على ما أذكر - تبرَّعَ بها

الشيخ كلها، بعضها لفقراء الحرمين، وبعضها لفقراء الهند ومدارسها الدينية.

وكذلك فعل بكل مبالغ الجوائز التي حصل عليها، مثل جائزة سلطان روناي في التاريخ الإسلامي، وجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، حين اختير ليكون «الشخصية الإسلامية» لعام (1419هـ)، وقيمة الجائزة مليون درهم، لم يدخل جيبه شيء من قيمة هذه الجوائز، بل أنفقها كلها في سبيل اللَّه.

حرصه على التجميع لا التفريق:

كان منهج الشيخ يتجه إلى البناء لا الهدم، وإلى الجمع لا التفريق، وكان يتجنب إثارة الخلاف بين المسلمين، ويمسُّ القضايا الشائكة مسًّا رقيقًا، تتمثل فيه الحكمة البالغة، والحوار بالتي هي أحسن، وقد وفق في هذا توفيقًا قل أن يتوافر لغيره. ذلك لطبيعته السمحة، وصدره الرحب، وخُلُقه العذب، وقدرته على معالجة المشكلات الصعبة بطريقة سهلة، وأسلوب حكيم.

انظر كيف عالج قضية التصوف – على رغم ما فيها من موقف السلفيين فيها – بطريقته المتميزة في كتابه الرائع: «ربانية لا رهبانية»، وكيف عالج فيها قضية «المصطلحات» وجنايتها على الحقائق، إذا تشبث الناس بها، وجعلوا العبرة في الأسماء لا المسميات، وفي العناوين لا في المضامين، ولو أنهم وضعوا بدل اسم التصوف أو عنوانه اسمًا أو عنوانًا آخر مثل «التزكية» المذكورة في القرآن أو «الإحسان» المذكور في الحديث، لاتفق الجميع، وارتفع الخلاف.

وانظر كيف عالج قضية «سبّ الصحابة» عند الشيعة، وكيف ردَّ عليهم ردًّا علميًّا يعدُّ غايةً في الأدب والتهذيب، وذلك في كتابه: «صورتان متضادتان»؛ يعني بهما الصورة التي يعتنقها الشيعة عن الصحابة، وهي صورة قاتمة، توحي بأنهم لم

يستفيدوا من تربية النبوة وتوجيهها وأدبها، حتى أقرب الناس إليه، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة، فكيف بغيرهم؟

والصورة الأخرى هي الصورة التي يقدّمها أهل السنة عن الصحابة باعتبارهم تلاميذ المدرسة المحمدية، فهم الذين رضعوا لبان النبوة، وتربّوا في حِجْرِ الرسالة، وأخذوا القرآن أولًا بأول من فم الرسول الكريم ﷺ غضًّا طريًّا، وشاهدوا آيات اللَّه بأمِّ أعينهم، وشهدوا الملائكة تنزل عليهم مثبِّتة لهم في غزوات بدر والخندق وحُنين.

هذه هي الصورة اللائقة بمقام النبوة، وبأثر التربية النبوية، والتوجيهات المحمدية، وهي التي تتفق مع ما جاء في القرآن من الثناء على الصحابة في سورة الفتح والأنفال والتوبة والحشر. وما جاء من الأحاديث بأنهم خير قرون الأمة. كما تتفق مع دورهم التاريخي المعروف، فهم الذين نقلوا إلينا القرآن الكريم، والذين رووا لنا السنن النبوية، وهم الذين فتحوا الفتوح، وعلّموا الأمم الإسلام، ولولا همم الصحابة وفضل الصحابة ما وصل إلينا الإسلام رضي الله عنهم.

مكانة الشيخ ومحبته لدى مسلمي العالم:

ولا غرو أن تؤدي هذه الفضائل والمكارم التي اتصف بها الشيخ - والتي لم نتحدث إلا عن نبذة منها - إلى أن يكنَّ كلُّ مَنْ عرف الشيخ من المسلمين في العالم الإسلامي وخارجه حبًّا كبيرًا للشيخ، يتقربون به إلى اللَّه تعالى؛ لأنه حب للَّه وحده، لا لدنيا زائفة، ولا لعرض زائل، ولا لقرابة في نسب أو وطن، إنما أحبوه لدينه وتقواه، وغيرته على الإسلام، وحُسن فهمه له، ودعوته إليه، وبذله في سبيله، وحدَبه على أمته، وتحرّقه على قضاياه، وذوده عن حِماه، وعيشه من أجله، ونذره

جهاده وجهوده لخدمته، ونفسه ونفيسه لنصرته، واعتقادهم في إخلاصه وتجرده، وزهده وصدقه، وبهذا كانوا معه بقلوبهم وألسنتهم، استجابةً لقول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، حتى من لم يرَ الشيخ بعينيه، بل قرأ له أو سمع به أحبَّه في اللَّه، رجاء أن يظله اللَّه في ظله يوم لا ظل إلى ظله.

وأشهد أني أحب هذا الرجل الرباني، وأرجو أن يكون حبي له حبًّا للَّه ﷻ، وأن يجعلني اللَّه وإياه من المتحابين فيه على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، والذي جاء فيهم الحديث الصحيح: «**إن اللَّه تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»(14).

وأشهد لقد رأيتُ الخاصة والعامة يحبون الشيخ، إلا من كان في قلبه مرض، والعياذ باللَّه تعالى.

أذكر هنا نموذجين من كبار العلماء والمفكرين الذين شاركوني في حب هذا الرجل العظيم.

أحدهما: المحدث الداعية العلّامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، الذي قال في رسالة له إلى الشيخ، نقل فيها عن تلميذ يحيى بن سعيد الأنصاري قوله: «كان يحيى بن سعيد يحدثنا فيسحُّ علينا مثل اللؤلؤ»، قال أبو غدة: فواللَّه، لقد كان حديثكم عليَّ هكذا، فالحمد للَّه الذي آتاكم وأولاكم، وأقامكم فينا وقوّاكم، وأرانا فيكم صفحات مشرقة من تاريخنا العلمي المجيد، وعلمائنا السالفين الأمجاد، فكنتم - وما زلتم بحمد اللَّه - النموذج الرفيع للتذكير بأولئك الأسلاف، الذين آتاهم

(14) رواه مسلم.

اللَّه حبه في قلوبهم وحب الناس لهم، بما أحبوا اللَّه ورسوله ﷺ، ولا غرابة فيكم أن تكونوا كذلك، فالدوحة الشريفة ما تزال ناضرة الأغصان، زاهية الألوان، معطارة في كل زمان ومكان والحمد للَّه.

والثاني: هو المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد المبارك، الذي قال في رسالة نُشرت له ضمن «رسائل الأعلام» إلى الشيخ: وهذه واللَّه عقيدتي، لا أقولها مجاملة ولا تكلفًا، وما كنت لأصارحكم بها لولا تألّمي من هجرانكم لي، أملًا في أن تكون سببًا لتعطّفكم، فليست رسالتي هذه إليكم عتابًا، ولكنها في الحقيقة استعطافًا، ولا أعلم أحدًا الآن هو عندي في هذه المنزلة من نفسي غيركم، حتى إني أتصور أن تكونوا في يوم الحشر على مرأى مني، حتى أناديكم وأتمسّك بأذيالكم، طالما خطر هذا ببالي وما حدثتكم ...

إن هذا الحب الذي تحسه وتلمسه في قلوب المسلمين عامة للشيخ الجليل، والذي بدأ للَّه، واستمر للَّه، واتسع نطاقه للَّه، ليدل على أنَّ لهذا الرجل مكانة عند اللَّه ﷻ، فحب الناس لا يأتي من فراغ، وألسنة الخلق أقلام الحق، والنبي ﷺ قال: «**أنتم شهداء اللَّه في الأرض**»[15].

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّه** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **إذا أحب عبدًا، نادى جبريل: إن اللَّه قد أحب فلانًا، فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن اللَّه قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض**»[16].

وشيخنا قد وضع له القبول في أهل الأرض، وأحبه العلماء والدعاة

(15) متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، كما في «اللؤلؤ والمرجان» رقم (553).
(16) «اللؤلؤ والمرجان» رقم (1692).

والصالحون، إلا من عاداه لنفاق، ونسأل اللَّه السلامة، أو من جهل حقيقته، ومن جهل شيئًا عاداه.

بل الحقيقة أن الشيخ قد جمع بين الحب والتقدير، فمن الناس من يحوز على احترامك وتقديرك، ولكنْ لا تستطيع أن تحبهم، ومنهم مَن يجذبون قلبك لحبهم، ولكنك لا تملك أن تكن لهم احترامًا وتقديرًا، وقليل من الناس هم الذين لا يسعك إلا أن تحبهم وتقدرهم، بل تكن لهم أعمق الحب، وأعظم التقدير في الوقت نفسه.

وهكذا كان الشيخ محبوبًا مقدّرًا في العالم العربي والعالم الإسلامي وبين المسلمين في أنحاء العالم. ولو جاز أن ينعقد الإجماع على فضل إنسان ومكانته لانعقد الإجماع عليه، ولكن جرت سنّة اللَّه أن الناس لا يزالون مختلفين، إلَّا مَن رحم ربك، ولذلك خلقهم.

ومن ثَمَّ وجدنا الشيخ عضوًا في كثير من المجالس والمجامع والمراكز، على المستوى العربي، وعلى المستوى الإسلامي، وعلى المستوى الدولي، فالجميع يحرصون على أن يحظوا بعضوية الشيخ معهم، أو برئاسته أحيانًا لمجلسهم، وذلك فضل اللَّه يؤتيه مَن يشاء واللَّه واسع عليم: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: 74].

مكانة الشيخ في الهند خاصة:

للشيخ – ولا شك – مكانة مرموقة بين المسلمين في أنحاء العالم، لما يتمتع به من صفات يندر أن توجد متكاملة في غيره إلا من رحم ربك.

ولكنَّ مكانة الشيخ في بلده بين مسلمين الهند – وهم يمثلون التجمع الثاني

الأكبر عددًا للمسلمين بعد إندونيسيا – أعظم وأكبر منها في أي مكان، فهو لهم بمنزلة سواد العين، وسويداء القلب، فهؤ الفؤاد الخافق بحبهم، وهو الحارس اليقظ لحقوقهم وحرماتهم، الحريص على بقاء هويتهم الإسلامية متميزة معبرة.

ولهذا اختاروه رئيسًا لأكثر من مجلس لهم.

ولقد رأيته منذ سنوات حينما أرادت حكومة الهند أن تغير قانون الأحوال الشخصية للمسلمين، وأن تلزمهم بأشياء لا تتفق مع شريعة الإسلام بالنسبة للمطلّقات وغيرها، وقف الشيخ ضد هذا التغيير وقفة الجبل الأشم، وزأر زأرة الأسد الهصور، وقال بملء فيه، لا. وأبلغ ذلك لكبار المسئولين من الهندوس في الدولة، وجمعَ المسلمين من ورائه لمقاومة هذا المشروع، وخطب في أكثر من مكان في البلاد العربية لتأليب القوى الإسلامية ضد هذا المشروع. وبدا هذا الرجل الهيِّن الليِّن، الخاشع البكَّاء، فارسًا مغوارًا، وسيفًا بتَّارًا. وهنا تذكرتُ موقف أبي بكر رضي الله عنه يوم الردة، وهو ذو القلب الرفيق، والطرف الدامع، كيف وقف وقفته التاريخية ضد الردة ومنع الزكاة، حتى نصر اللَّه به الإسلام.

ولقد انتصر الشيخ في هذه المعركة وعدلت الحكومة عن موقفها، وسحبت مشروعها، بفضل اللَّه تعالى، ثم بصلابة الشيخ وثباته وإبائه لأنصاف الحلول.

وللشيخ مكانة لا تخطئها العين عند الهندوس الوثنيين عامتهم وخاصتهم، فعامتهم يحترمونه؛ لأنهم يعتقدون أنه رجل مبارك من القديسين، وخاصتهم يحترمونه؛ لأنهم يعتقدون أنه رجل عظيم، وأنه جعل للهند مكانة عند المسلمين في أنحاء العالم.

ولقد شهدتُ بنفسي في احتفال «ندوة العلماء» بمهرجانها العالمي الكبير بمناسبة

مرور خمسة وثمانين عامًا على تأسيسها، كيف حضرتْ ألوف مؤلَّفة من الهندوس احتفال الندوة في مدينة «لكهنو» وشاركوا المسلمين في ذلك. وما ذلك إلا لمنزلة الشيخ عندهم.

وكما يقول الشيخ نور عالم الأميني عنه بحق:

«توفي وليس في طول الهند وعرضها عالم ديني وقائد إسلامي، تهابه الحكومة في قرارة نفسها، وتحسب له في سلوكها، وتفكر لدى اتخاذ قرار يمسّ الإسلام والمسلمين، أكثر من مرة، وقد تسحب القرار الذي قد اتخذته ونفذته، فها هي الحكومة الإقليمية في ولاية «يوبي» تصدر مرسومًا لإرغام طلاب المدارس العصرية - بمن فيهم الطلاب المسلمون - على أن يبدءوا مشوارهم الدراسي كل يوم بإنشاد نشيد «وند ماترم» المشتمل على الوثنية المتعارضة مع عقيدة الإسلام، فيصرخ في وجهه، ويصارح بأنه هو وشعبه المسلم سيفضِّلُ الموتَ على الحياة التي يرغم فيها على التغني بمثل هذا النشيد الذي يقدِّس ما سوى اللَّه ﷻ. وما أن يقرع المقال المؤمن أسماع المسئولين في الحكومة، حتى يسحبوا القرار، ويؤكدوا أنهم لن يفرضوا على المواطنين على كره منهم ما يضاد عقائدهم».

وأعجبُ ما رأيتُه بنفسي من الشيخ: قلقه على بلده الهند كلها بمسلميها وهندوسها، وخوفه على مستقبلها، بعد أن فقدت القادة والزعماء التاريخيين الكبار، أمثال غاندي وأبي الكلام آزاد، ونهرو وأنديرا، وانتقلت القيادة إلى بعض الزعماء المتعصبين المنغلقين، الذين لا يعرفون ما يحتاج إليه هذا البلد من انفتاح وتسامح حتى يتعايش أهله، ويتعاونوا معًا رغم اختلاف دياناتهم وثقافاتهم. فقد كان يخشى رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سياسة هؤلاء القصيري النظر أن تجلبَ شرًّا على هذا البلد الكبير «الذي بلغ تعداده المليار»، وأن تُفتقَ فيه فتوق يصعب رتقها، بل قد يستحيل رتقها.

فهو – رغم إسلاميته الأصيلة العميقة – لم ينسَ حق بلده، ولا التفكير في مصيره، وإن كانت أغلبيته هندوسية.

تقدير وتكريم للشيخ:

اختير عضوًا مراسلًا في مجمع اللغة العربية بدمشق عام (1956م).

أدار الجلسة الأولى لتأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام (1962م) نيابة عن رئيسها سماحة المفتي العام للمملكة العربية السعودية الشيخ «محمد بن إبراهيم آل الشيخ»، وقد حضر أولها جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود، كما حضرها الملك إدريس السنوسي ملك ليبيا، وشخصيات أخرى ذات شأن، وقدّم فيها مقاله القيّم بعنوان: «الإسلام فوق القوميات والعصبيات».

اختير عضوًا في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام (1962م)، ظل عضوًا فيه إلى انحلال المجلس وانضمام الجامعة في سلك بقية الجامعات السعودية تابعة لوزارة التعليم العالي – قبل أعوام.

اختير عضوًا في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها.

اختير عضوًا مؤازرًا في مجمع اللغة العربية الأردني عام (1980م).

تم اختياره لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام (1980م).

دعا إلى أول ندوة عالمية عن الأدب الإسلامي في رحاب دار العلوم لندوة العلماء عام (1981م).

منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام (1981م).

اختير رئيسًا لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية عام (1983م).

اختير عضوًا في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت» عام (1983م).

تأسست رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام (1984م) فاختير رئيسًا عامًّا لها.

أقام الشيخ عبد المقصود خوجة - من أعيان جدّة وأدبائها - حفلًا لتكريم سماحته بجدة عام (1985م).

أقيمت ندوة أدبية حول حياته الدعوية والأدبية عام (1996م) في تركيا على هامش المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية.

* * *

الباب الثاني
أبو الحسن الندوي
داعيةً ومُوجِّهًا

- **مواهب وأدوات الداعية عند الشيخ.**
- **ركائز فقه الدعوة عند العلَّامة أبي الحسن الندوي.**
- **إعلاء الوحي على العقل في الشرعيات.**

* * *

الباب الثاني

فقه الدعوة عند أبي الحسن الندوي

الشيخ أبو الحسن الندوي أحدُ أعلام الدعاة إلى الإسلام بلا ريب ولا جدال. عبّرت عن ذلك: كتبُه ورسائلُه ومحاضراته التي شرّقت وغرّبت، وقرأها العرب والعجم، وانتفع بها الخاص والعام.

كما أنبأت عن ذلك: رحلاته ونشاطاته المتعددة المتنوعة في مختلف المجالس والمؤسسات.

وبعض كتبه قد رزقها اللَّه القبول، فطُبعت ثانية وثالثة ورابعة، وأكثر من ذلك، وتُرجمت إلى لغات عدة، وذلك فضلُ اللَّه يؤتيه من يشاء.

* * *

مواهب وأدوات الداعية

والحق أنَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد آتاه اللَّه من المواهب والقدرات، ومنحه من المؤهلات والأدوات؛ ما يمكّنه من احتلال هذه المكانة الرفيعة في عالم الدعوة والدعاة.

1 - **العقل والحكمة:**

فقد آتاه اللَّه: العقل والحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]، الحكمة أولى وسائل الداعية إلى اللَّه تعالى، كما قال ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

ولهذا نجده يقول الكلمة الملائمة، في موضعها الملائم، وفي زمانها الملائم، ويشتد حيث تلزم الشدة، حتى يكون كالسيل المتدفق، ويلين حيث ينبغي اللين، حتى يكون كالماء المغدق. وهذا ما عرف به منذ شبابه الباكر إلى اليوم.

2 - **الثقافة الواسعة:**

وآتاه اللَّه الثقافة، التي هي زاد الداعية الضروري في إبلاغ رسالته، وسلاحه الأساس في مواجهة خصومه، وقد تزوَّد الشيخُ بأنواعٍ من الثقافة الستة التي ذكرتها في كتابي: «ثقافة الداعية» وهي: الثقافات الدينية، واللغوية، والتاريخية، والإنسانية، والعلمية، والواقعية.

بل إن له قدمًا راسخًا، وتبريزًا واضحًا في بعض هذه الثقافات، مثل: الثقافة التاريخية، كما برز ذلك في أول كتابٍ به ميدان التصنيف، وهو الكتاب الذي كان رسوله الأول إلى العالم العربي، قبل أن يزوره ويتعرّف عليه، وهو كتاب: «ماذا

خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» الذي نفع اللَّه به الكثيرين من الكبار والصغار، ولم يكد يوجد داعية – بعد صدوره – إلا واستفاد منه.

وكما تجلَّى ذلك في كتابه الرائع التالي: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» في جزئه الأول، ثم ما ألحق به من أجزاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وعن الإمام السرهندي، والإمام الدهلوي.

ثم في كتابه: «المرتضى سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللَّه تعالى عنه».

وقد ساعده في ذلك:

تكوينه العلمي المتين، الذي جمع بين القديم والحديث.

ومعرفته باللغة الإنكليزية، إلى جوار اللغة العربية والأوردية والهندية والفارسية.

ونشأته في بيئة علمية أصيلة، خاصة وعامة. فوالده العلّامة عبد الحي الحسني صاحب موسوعة «نزهة الخواطر» في تراجم رجال الهند وعلمائها، ووالدته كانت من النساء الفضليات المتميزات، فكانت تحفظ القرآن، وتنشئ الشعر، وتكتب وتؤلِّف، ولها بعض المؤلَّفات، ومجموع شعري. كما نشأ في رحاب «ندوة العلماء» ودار علومها، التي كانت جسرًا بين التراث الغابر والواقع الحاضر، والتي أخذت من القديم أنفعه، ومن الجديد أصلحه، ووفّقت بين العقل والنقل، وبين الدين والدنيا، وبين العلم والإيمان، وبين الثبات والتطور، وبين الأصالة والمعاصرة.

3 - **الملكة الأدبية:**

وآتاه اللَّه البيانَ الناصعَ، والأدبَ الرفيعَ، كما يشهد بذلك كلُّ مَن قرأ كتبه

ورسائله، وكان له ذوق وحسٌّ أدبي؛ فقد نشأ وربا في حِجر العرب وأدبها منذ نعومة أظفاره، وألهم اللَّه شقيقه الأكبر أن يوجِّهه هذه الوجهة في وقتٍ لم يكن يعُنى أحد بهذا الأمر، لحكمة يعلمها اللَّه، ليكون همزة الوصل بين القارة الهندية، وأمة العرب، ليخاطبهم بلسانهم، فيفصح كما يفصحون، ويبدع كما يبدعون، بل قد يفوق بعض العرب الناشئين في قلب بلاد العرب.

ولقد قرأنا الرسائل الأولى للشيخ الندوي التي اصطحبها معه حينما زارنا في القاهرة سنة (1951م) ومنها: «من العالم إلى جزيرة العرب»، و«من جزيرة العرب إلى العالم»، «معقل الإنسانية»، «دعوتان متنافستان»، «بين الصورة والحقيقة»، «بين الهداية والجباية» ... وغيرها.

فوجدنا فيها نفحات أدبية جديدة في شذاها وفحواها، حتى علَّق الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ على تلك الرسائل بقوله: هذا الدين لا تخدمه إلا نفس شاعرة! فقد كانت تلك الرسائل نثرًا فيه روح الشعر، وعبق الشعر.

وقرأنا بعدها مقال: «اسمعي يا مصر»، ثم «اسمعي يا سوريا»، «اسمعي يا زهرة الصحراء»، «اسمعي يا إيران». وكلها قطرات من الأدب المصفَّى.

وقرأنا ما كتبه في مجلة «المسلمون» الشهرية المصرية، التي كان يصدرها الداعية المحبوب المعروف الدكتور سعيد رمضان: ما كتبه من قصص رائع ومشوق عن حركة الدعوة والجهاد، التي قام بها البطل المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد، وما كتبه من مقالات ضمَّنَها كتابه الفريد: «الطريق إلى المدينة» الذي قدَّمه أديب العربية الأستاذ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال في مقدمته: يا أخي الأستاذ أبا الحسن! لقد كِدْتُ أفقد ثقتي بالأدب، حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العُلويَّة،

التي غنَّى بها الشعراء، من لدُن الشريف الرضي إلى البُرَعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثرٍ هو الشعر، إلا أنه بغير نظام[17].

4 - **القلب الحي:**

وآتاه اللَّه القلبَ الحيَّ، والعاطفة الجياشة بالحب للَّه العظيم، ولرسوله الكريم ﷺ، ولدينه القويم، فهو يحمل بين جنبيه نبعًا لا يغيض، وشعلة لا تخبو، وجمرة لا تتحول إلى رماد.

ولا بد للداعية إلى اللَّه أن يحمل مثل هذا القلب الحي، ومثل هذه العاطفة الدافقة بالحب والحنان، والدفء والحرارة، يفيض منها على من حوله، فيحرّكهم من سكون، ويوقظهم من سُبات، ويحييهم من موات.

وكلام أصحاب القلوب الحية له تأثير عظيم في سامعيه وقرّائه، فإنَّ الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان، ولهذا كان تأثير الحسن البصري في كل من يشهد درسه وحلقته، على خلاف حلقات الآخرين، ولهذا قيل: ليست النائحة المستأجَرة كالثَّكلى.

هذا القلب الحي، يعيش مع اللَّه في حب وشوق، راجيًا خائفًا، راغبًا راهبًا، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، كما يعيش في هموم الأمة على اتساعها، ويحيا في آلامها وآمالها، لا يشغله هم عن هم، ولا بلد عن آخر، ولا فئة من المسلمين عن الفئات الأخرى.

وهذه العاطفة هي التي جعلته يتغنى كثيرًا بشعر إقبال، ويحسُّ كأنه شعره هو، كأنه منشئه وليس راويه. وكذلك شعر جلال الدين الرومي، وخصوصًا شعر

(17) «الطريق إلى المدينة» (ص 12)، طبع دار القلم بدمشق.

الحب الإلهي، كما جعلته يولي عناية خاصة لأصحاب القلوب الحية، مثل: الحسن البصري، والغزالي، والجيلاني، وابن تيمية، والسرهندي، وغيرهم.

5 - **الخُلُق الكريم:**

وآتاه اللَّه الخُلُقَ الكريم والسلوك القويم، وقد قال بعض السلف: التصوف هو الخُلق، فمن زادَ عليك في الخُلق، فقد زاد عليك في التصوف! وعلق على ذلك الإمام ابن القيم في «مدارج السالكين» فقال: بل الدين كله هو الخُلق، فمن زاد عليك في الخُلُق، فقد زاد عليك في الدين.

ولا غرو أن أثنى اللَّه على رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، وأن أعلن الرسول الكريم عن غاية رسالته، فقال: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق، أو مكارم الأخلاق**»(18).

ومن عاشر الشيخ - ولو قليلًا - لمسَ فيه هذا الخلق الرضي، ووجده مثالًا حيًّا لما يدعو إليه، فسلوكه مرآة لدعوته، وهو رجل باطنه كظاهره، وسريرته كعلانيته، نحسبه كذلك، واللَّه حسيبه، ولا نزكيه على اللَّه ﷻ.

ومن هذه الأخلاق الندوية: الرقة، والسماحة، والسخاء، والشجاعة، والرفق، والحِلم، والصبر، والاعتدال، والتواضع، والزهد، والجد، والصدق مع اللَّه ومع الناس، والإخلاص، والبعد عن الغرور، والعُجب، والأمل، والثقة، والتوكل، واليقين، والخشية، والمراقبة، وغيرها من الفضائل والأخلاق الربانية والإنسانية.

وهذا من بركات النشأة الصالحة في البيئة الصالحة في أسرة هاشمية حسنية، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 34].

---

(18) رواه ابن سعد والبخاري في «الأدب المفرد».

إن الداعية الحق هو الذي يؤثر بحاله أكثر مما يؤثر بمقاله، فلسان الحال أبلغ، وتأثيره أصدق وأقوى، وقد قيل: حال رجل في ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل في رجل!

وآفة كثير من الدعاة: أنَّ أفعالهم تكذِّب أقوالهم، وأنَّ سيرتهم تناقض دعوتهم، وأن سلوكهم في واد، ورسالتهم في واد آخر. وأن كثيرًا منهم ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ 2 كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 2، 3].

6 - **العقيدة السليمة:**

وآتاه الله قبل ذلك كله: العقيدة السليمة، عقيدة أهل السنة والجماعة، سليمة من الشركيات، والقبوريات، والأباطيل، التي انتشرت في الهند، وكان لها سوق نافقة، وجماعات مروّجة، تغدو بها وتروح، تأثروا بالهندوس في معتقداتهم وأباطيلهم، كما هو الحال عند جماعة «البريليوين» الذين انتسبوا إلى التصوف اسمًا ورسمًا، والتصوف الحق براءٌ منهم، وقد حفلت عقائدهم بالخرافات، وعباداتهم بالمبتدعات، وأفكارهم بالترهات، وأخلاقهم بالسلبيات.

ولكنَّ الشيخ تربَّى على عقائد مدرسة «ديوبند» التي قام عليها منذ نشأتها علماء ربانيون، طاردوا الشرك بالتوحيد، والأباطيل بالحقائق، والبدع بالسنن، والسلبيات بالإيجابيات.

وأكدت ذلك مدرسة الندوة - ندوة العلماء - وأضافت إليها روحًا جديدة، وسلفية حية حقيقية، لا سلفية شكلية جدلية، كالتي نراها عند بعض من ينسبون إلى السلف، ويكادون يحصرون السلفية في اللحية الطويلة، والثوب القصير، وشن

الحرب على أدنى تأويل في نصوص الصفات!

إن العقيدة السلفية عند الشيخ هي: توحيد خالص للَّه تعالى، لا يشوبه شرك، ويقين عميق بالآخرة لا يعتريه شك، وإيمان جازم بالنبوة، لا يداخله تردد ولا وهم، وثقة مطلقة بالقرآن والسنة، مصدرين للعقائد والشرائع والأخلاق والسلوك.

❋ ❋ ❋

ركائز فقه الدعوة
عند العلَّامة أبي الحسن الندوي

يقوم فقه الدعوة عند العلامة أبي الحسن الندوي على ركائز وأسس تبلغ العشرين، منها ينطلق، وإليها يستند. نجملها هنا، ونفصِّلها فيما بعد إن شاء اللَّه.

1 - **تعميق الإيمان في مواجهة المادية:**

أولى هذه الركائز: تعميق الإيمان باللَّه تعالى، وتوحيده سبحانه: ربًّا خالقًا، وإلهًا معبودًا، واليقين بالآخرة، دارًا للجزاء، ثوابًا وعقابًا، في مواجهة المادية الطاغية، التي تجحد أن للكون إلهًا يدبّره ويَحْكُمُه، وأن في الإنسان روحًا هي نفحة من اللَّه، وأن وراء هذه الدنيا آخرة، المادية التي تقول: إنْ هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع! ولا شيء بعد ذلك. أو كما حكى اللَّه عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29].

وقد تخللت هذه الركيزة الفكرية المحورية معظم رسائله وكتبه، وخصوصًا: «الصراع بين الإيمان والمادية»، و«ماذا خسر العالم؟»، و«الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية».

2 - **إعلاء الوحي على العقل:**

وثانية هذه الركائز: هي اعتبار الوحي هو المصدر المعصوم، الذي تؤخذ منه حقائق الدين وأحكامه، من العقائد والشرائع والأخلاق، واعتبار نور النبوة فوق نور العقل، فلا أمان للعقل إذا سار في هذه الطريق وحده من العثار، ولا أمان للفلسفات المختلفة في الوصول إلى تصور صحيح عن الألوهية والكون والإنسان

والحياة، حتى الفلسفة الدينية أو علم الكلام حين خاض هذه اللجة غرق فيها. وقصور العقل هنا شهد به بعض كبار المتكلمين كالفخر الرازي، والآمدي، وغيرهما، وبعض كبار الفلاسفة، وأحدثهم «كانت».

وكذلك فلسفات الإشراق لم تصل بالإنسان إلى برِّ الأمان. وقد بيَّنَ ذلك أبو الحسن الندوي في عدد من كتبه، منها: «النبوة والأنبياء في القرآن»، ومنها: «الدين والمدنية» وأصله محاضرة ألقاها في مقتبل الشباب «في الثلاثين من عمره».

3 - **توثيق الصلة بالقرآن الكريم:**

والركيزة الثالثة: هي توثيق الصلة بالقرآن، باعتباره كتاب الخلود، ودستور الإسلام، وعمدة الملة، وينبوع العقيدة، وأساس الشريعة، وهو يدعو إلى حُسن تلاوته، ووجوب تدبره، كما يوجب اتّباع القواعد المقررة في تفسيره، وعدم الإلحاد في آياته، وتأويلها وفق الأهواء والمذاهب المنحولة؛ ولهذا أنكر بشدة على القاديانيين هذا التحريفَ في فهم القرآن.

ومن قرأ كتب الشيخ وجده عميق الصلة بكتاب اللَّه، مستحضرًا لآياته في كل موقف، يُحسن الاستشهاد بها غاية الإحسان. وله ذوق في فهم الآيات، كما أنَّ له دراسات خاصة في ضوء القرآن مثل: «تأملات في سورة الكهف» التي تجلِّي الصراع بين المادية والإيمان بالغيب، و«النبوة والأنبياء في ضوء القرآن»، وغيرها من الكتب والرسائل، وقد عمل مدرّسًا للقرآن وعلومه في دار العلوم بلكنهو عدة سنوات.

4 - **توثيق الصلة بالسنة والسيرة النبويتين:**

والركيزة الرابعة: هي توثيق الصلة بالسنة والحديث الشريف، والسيرة النبوية

العاطرة، باعتبار السنة مبيّنة للقرآن وشارحته نظريًّا، وباعتبار السيرة هي التطبيق العملي للقرآن، وفيها يتجلى القرآن مثالًا حيًّا في بشر ـ «**كان خُلُقُه القرآن**»[19]، وتتجلى الأسوة الحسنة التي نصبها اللَّه للناس عامة، وللمؤمنين خاصة، لهذا كان المهم العيش في رحاب السيرة، والاهتداء بهديها، والتخلق بأخلاقها، لا مجرد الحديث عنها باللسان أو بالقلم.

وقد بيَّنَ الشيخ أثر الحديث في الحياة الإسلامية، كما أبدع في كتابة السيرة للكبار والأطفال، وهو هنا يجمع بين عقل الباحث المدقق، وقلب المحب العاشق، وهذا يكاد يكون مبثوثًا في عامة كتبه، ولا سيما في كتابه: «السيرة النبوية».

5 - **إشعال الجذوة الروحية «الربانية الإيجابية»:**

والركيزة الخامسة: هي إشعال الجذوة الروحية في حنايا قلب المسلم، وإعلاء نفخة الروح على قبضة الطين، والحمأ المسنون في كيانه، وإبراز هذا الجانب الأساسي في الحياة الإسلامية، التي سمَّاها الشيخ: «ربانية لا رهبانية» وهو عنوانٌ لأحد كتبه الشهيرة[20]، وقد سمَّاها بهذا الاسم لسببين:

أولهما: أن يتجنب اسم التصوف لما عَلِقَ به من شوائب، وما أُلصق به من زوائد، على مر العصور، وهذا منا جناية المصطلحات على الحقائق والمضامين الصحيحة. وما التصوف في حقيقته إلا جانب التزكية، التي هي إحدى شعب الرسالة المحمدية، أو جانب الإحسان الذي فسّره الرسول ﷺ في حديث جبريل الشهير[21].

---

(19) رواه مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(20) وقد نشرته دار القلم ضمن سلسلة «كتب قيّمة».

(21) رواه مسلم من حديث عمر رضي الله عنه.

والسبب الثاني: إبراز العنصر الإيجابي في هذه الحياة الروحية المنشودة، فهي روحية اجتماعية، كما سمَّاها أستاذنا البهي الخولي رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه: «تذكرة الدعاة» وهي ربانية إيجابية، تعمل للحياة، ولا تعتزلها، ولا تبعدها، وتجعل منها مزرعة للحياة الأخرى، حياة الخلود والبقاء.

كما وضَّح الشيخ الندوي الجانب التعبدي الشعائري في حياة المسلم في كتابه المعروف: «الأركان الأربعة»[22]، وهو يمثِّل نظرة جديدة في عبادات الإسلام الكبرى: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وآثارها في النفس والحياة.

6 - **البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق:**

والركيزة السادسة: أنَّ الشيخ أبا الحسن الندوي جعل همَّه في البنا لا الهدم، والجمع لا التفريق، وأنا أشبّهه بالإمام الشهيد حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي كان حريصًا على هذا الاتجاه الذي شعاره: نبني ولا نهدم، ونجمع ولا نفرِّق، ونقرّب ولا نباعد، ولهذا تبنّى قاعدة «المنار» الذهبية: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

وهذا هو توجّه شيخنا الندوي، فهو يبعد ما استطاع عن الأساليب الحادة، والعبارات الجارحة، والموضوعات المفرّقة، ولا يقيم معارك حول المسائل الجزئية، والقضايا الخلافية.

ولا يعني هذا: أنه يداهِن في دينه، أو يسكتُ عن باطل يراه، أو خطأ جسيم يشاهده، بل هو ينطق بما يعتقده من حق، وينقد ما يراه من باطل أو خطأ، لكن بالتي هي أحسن، كما رأيناه في نقده للشيعة في موقفهم من الصحابة «صورتان

(22) وقد طبع طبعة أنيقة في دار القلم بدمشق.

متضادتان»، وفي نقده للعلَّامة أبي الأعلى المودودي، والشهيد سيد قطب، فيما سمَّاه «التفسير السياسي للإسلام»، وإن كنتُ وددتُ لو اتّخذ عنوانًا غيرَ هـذا العنـوان، الذي قد يستغلّه العلمانيون في وقوفهم ضـد «شـمول الإسـلام»، وقـد صـارحتُ الشيخ بذلك ووافقني عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

7 - **إحياء روح الجهاد في سبيل اللَّه:**

والركيزة السابعة: هي إحياء روح الجهـاد في سـبيل اللَّه، وتعبئـة قـوى الأمـة النفسية للدفاع عن ذاتيتها ووجودها، وإيقاد شعلة الحماسة للدين في صدور الأمة، التي حاولت القوى المعادية للإسـلام إخمادهـا، ومقاومـة روح البطالـة والقعـود، والوهن النفسي، الذي هو حُب الدنيا وكراهية الموت. وهذا واضحٌ في كتابه: «ماذا خسر العالم؟»، وفي كتابه: «إذا هبّت ريح الإيمان»، وفي حديثـه الـدافق المعبّـر عـن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته ودعوته، وعن صلاح الدين الأيوبي وأمثالـه من أبطال الإسلام.

ومنذ رسالته الأولى وهو ينفخ هذه الروح، ويهيبُ بالأمة أن تنهض للذود عـن حماها، وتقوم بواجب الجهاد بكل مراتبه ومستوياته حتـى تكـونَ كلمـة اللَّه هـي العليا.

8 - **استيحاء التاريخ الإسلامي وبطولاته:**

والركيزة الثامنة: استيحاء التاريخ - ولا سيما تاريخنا الإسلامي - لاسـتنهاض الأمة من كبوتها، فالتاريخ هو ذاكرة الأمة، ومخـزن عبرهـا، ومسـتودع بطولاتهـا. والشيخ يملك حِسًّا تاريخيًّا فريدًا، ووعيًا نادرًا بأحداثه الكبار، والدروس المستفادة

منها، كما تجلّى ذلك في رسالته المبكرة: «المد والجزر في تاريخ الإسلام»[23]، وفي كتابه: «ماذا خسر العالم؟»، وفي غيره.

والتاريخ عنده ليس هو تاريخ الملوك والأمراء وحدهم، بل تاريخ الشعوب والعلماء والمصلحين والربانيين.

وليس هو التاريخ السياسي فقط، بل السياسي والاجتماعي والثقافي والإيماني والجهادي. ولهذا يستنطق التاريخ بمعناه الواسع، ولا يكتفي بمصادر التاريخ المعروفة، بل يضمُّ إليها كتب: الدين، والأدب، والطبقات المختلفة، وغيرها، ويستلهم مواقف الرجال الأفذاذ، وخصوصًا المجددين والمصلحين، كما في كتابه: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الذي بيَّن فيه أن الإصلاح والتجديد خلال تاريخ الأمة: حلقات متصلة، ينتهي دور ليبدأ دور، ويغيب كوكب ليطلع كوكب. والنقص ليس في التاريخ، إنما هو في منهج كتابته وتأليفه.

9 - نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية:

والركيزة التاسعة: هي نقد الجاهلية الحديثة، المتمثلة في الفكرة الغربية، والحضارة المادية المعاصرة، ورؤيته هنا واضحة كلَّ الوضوح لحقيقة الحضارة الغربية وخصائصها، واستمدادها من الحضارتين: الرومانية واليونانية، وما فيهما من غلبة الوثنية، والنزعة المادية الحسية، والعصبية القومية، وهو واعٍ تمامًا للصراع القائم بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وخصوصًا في ميادين التعليم والتربية والثقافة والقيم والتقاليد.

وقد أنكر الشيخ موقف الفريق المستسلم للغرب، المقلّد له تقليدًا أعمى في

(23) وقد نشرته دار القلم ضمن سلسلة: «كتب قيمة».

الخير والشر، ومِثْله: موقف الفريق الرافض للغرب كله، المعتزل لحضارته بمادياتها ومعنوياتها ...

ونوّه الشيخ بموقف الفريق الثالث، الذي لا يعتبِرُ الغرب خيرًا محضًا، ولا شرًّا محضًا، فيأخذ من الغرب وسائله لا غاياته، وآلياته لا منهج حياته، فهو ينتخب من حضارته ما يلائم عقائده وقيمه، ويرفض ما لا يلائمه.

واهتمَّ الشيخ هنا بشعر إقبال باعتباره أبرز ثائر على الحضارة المادية، مع عمق دراسته لها، وتغلغله في أعماقها.

وقد تجلّى هذا في كثير من كتبه ورسائله ومحاضراته، ولا سيما: «حديث مع الغرب»، «ماذا خسر العالم؟»، «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»، «أحاديث صريحة في أمريكا»، محاضرة: «الإسلام والغرب» في أكسفورد.

١٠ - نقد الفكرة القومية والعصبيات الجاهلية:

والركيزة العاشرة: نقد ما شاع في العالم العربي والعالم الإسلامي كله، من التنادي بفكرة القومية القائمة على إحياء العصبيات الجاهلية، بعد ما أكرم الله به هذه الأمة من الأخوّة الإسلامية، والإيمان بالعالمية، والبراءة من كلِّ مَن دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية.

وأشد ما آلمه: أن تتغلغل هذه الفكرة بين العرب، الذين هم عُصبة الإسلام، وحملة رسالته، وحفظة كتابه وسنّته، وهو واحد منهم نسبًا وفكرًا وروحًا.

لذا وقف في وجه القومية العربية العلمانية المعادية للإسلام، المفرّقة بين المسلمين، كما تجلى ذلك في كتابات غلاة القوميين العرب، والتي اعتبرها بعضُهم نبوةً جديدةً، أو ديانة جديدة، تجمع العرب على معتقدات ومفاهيم وقيم غير ما

جاء به محمد ﷺ، الذي هدى اللَّه به أُمَّةَ العرب، وجمعهم به مِن فُرقة، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور. وله هنا رسالة معروفة: «الإسلام فوق العصبيات والقوميات».

وهو رغم رفضه للقومية، لا ينكر فضل العرب ودروهم وريادتهم، بل هو يستنهض العرب في محاضراته ورسائله وكتبه للقيام بمهمتهم، والمناداة بعقائدهم ومبادئهم في وجه العالم، كما نادى ربعيُّ بن عامر، في مواجهة قادة الفرس، وهو يقول في كتابه: «ماذا خسر العالم؟»: محمدٌ رسول اللَّه روحُ العالم العربي.

ويوجّه رسالة عنوانها: «اسمعوها مني صريحة أيها العرب»، ورسائل أخرى: «العرب والإسلام»، «الفتح للعرب المسلمين»، «اسمعي يا مصر»، «اسمعي يا سوريا»، «اسمعي يا زهرة الصحراء» يعني: الكويت ... «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟»، «كيف دخل العرب التاريخ؟»، «العرب يكتشفون أنفسهم»، «تضحية شباب العرب» ... إلخ.

1 - تأكيد عقيدة ختم النبوة، ومقاومة الفتنة القاديانية:

والركيزة الحادية عشرة: هي تأكيد عقيدة ختم النبوة، وهي عقيدة معلومة من الدين بالضرورة بين المسلمين طوال القرون الماضية، ولم يثَر حولها أي شك أو شبهة، وإنما أوجب تأكيد هذه العقيدة ظهور الطائفة القاديانية بفتنتهم الجديدة، التي اعتبرها الشيخ ثورة على النبوة المحمدية.

ولقد كُتِبَ في هذه القضية ما كُتب من مؤلفات ومقالات، ولكنَّ الشيخ شعر بمسئولية خاصة إزاءها، فكتب في بيان أهمية ختم النبوة: باعتبارها تكريمًا للإنسانية بأنها بلغت الرشد، وأنها انتهت إلى الدين الكامل الذي يضع الأسس

والأصول، ويترك التفصيلات للعقل البشري، الذي يولِّد ويستنبط في ضوء تلك الأصول ما تحتاج إليه المجتمعات في تطورها المستمر، وهي تغلق الباب على المتنبئين الكذّابين، وتمنع فوضى الدعاوى الكاذبة المفترية على اللَّه تعالى.

وقد أكد الشيخ ذلك في فصل من كتابه: «النبوة والأنبياء» عن محمد خاتم النبيين، ثم ألّف كتابًا عن: «النبي الخاتم»، وجعل السيرة النبوية للأطفال بعنوان: «سيرة خاتم النبيين»، ثم صنَّف كتابًا خاصًّا عن: «القادياني والقاديانية» تضمّن دراسةً وتحليلًا لشخصية غلام أحمد ودعوته، ونشأته في أحضان الاستعمار الإنكليزي، واعترافه المتكرر بذلك في رسائله وكتاباته، ودعوته المسلمين إلى طاعة الإنكليز، وإلغاء الجهاد.

وبيّن الندوي بكل صراحة: أننا - مع القاديانية - في مواجهة دين إزاء دين، وأمة إزاء أمة. كما اشتد نكيرُه عليهم في تحريفهم للقرآن، وتلاعبهم باللغة العربية، وهذا الكتاب مرجع علمي موثَّق بالأدلة من مصادرها القاديانية ذاتها.

2 - مقاومة الردة الفكرية:

والركيزة الثانية عشرة: هي مقاومة الردة الفكرية التي تفاقم خطرها بين العرب والمسلمين عامة، والمثقفين منهم خاصة. فكما قاوم الشيخ الردة الدينية التي تمثلت في القاديانية - التي أصرَّ علماء المسلمين كافة في الهند وباكستان على اعتبارهم أقلية غير مسلمة - لم يألُ جهدًا في محاربة هذه الردة العقلية والثقافية التي تريد أن تسلخ المسلمين من جلدهم، وتفتنهم عن حقائق دينهم، وتخرجهم عن هويتهم، وتشككهم في ذاتيتهم، وتدخل عليهم من القيم والمفاهيم ما يناقض أصولهم، ويبتدع لهم مصادر يستقون منها فكرهم وسلوكهم، غير المصادر المعصومة التي

آمنوا بها طوال تاريخهم، وهي القرآن والسنة. ولا غرو أن جنَّد قلمه ولسانه وعلمه وجهده في إعلان الحرب على هذه الردة الوافدة الغازية، وكشف زيفها، ووقف زحفها، ومطاردة فلولها، وقد ألَّف فيها رسالته البديعة الشهيرة: «ردّةٌ ولا أبا بكرٍ لها!».

3 - تأكيد دور الأمة المسلمة واستمراره في التاريخ:

والركيزة الثالثة عشرة: هي تأكيد دور الأمة المسلمة في هداية البشرية، والشهادة على الأمم، والقيام على عبادة اللَّه وتوحيده في الأرض، كما أشار إلى ذلك الرسول ﷺ يومَ بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض**». وهذه الأمة صاحبة رسالة شاملة، وحضارة متكاملة، مزجت المادة بالروح، والعقل بالقلب، ووصلت الأرض بالسماء، وربطت الدنيا بالآخرة، وجمعت بين العلم والإيمان، ووفقت بين حقوق الفرد ومصلحة المجتمع.

وهذه الأمة موقعها موقع القيادة والريادة للقافلة البشرية، وقد انتفعت منها البشرية يوم كانت الأمة الأولى في العالم ... ثم تخلَّفت عن الركب لعوامل شتى، فخسر العالم كثيرًا بتخلفها، وهو ما عالجه كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» الذي عرفتُ به الشيخَ قبل أن ألقاه، والذي استقبله العلماء والدعاة والمفكرون المسلمون استقبالًا حافلًا، وقال عنه شيخنا الدكتور محمد يوسف موسى: إن قراءته فرضٌ على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام!

ولا زال العلّامة الندوي يبدئ ويعيد في تنبيه الأمة المسلمة على القيام بدورها الرسالي، ومهمتها التي أُخرجتْ لها، فقد أخرجها اللَّه للناس لا لنفسها. ولعل آخر إنتاجه في ذلك: محاضرته التي ألقاها في دولة قطر، بعنوان: «قيمة الأمة الإسلامية

بين الأمم ودورها في العالم».

4 - بيان فضل الصحابة ومنزلتهم في الدين:

والركيزة الرابعة عشرة: هي بيان فضل الجيل المثالي الأول في هذه الأمة، وهو جيل الصحابة رضوان اللَّه عليهم، أبرّ الناس قلوبًا، وأعمقهم علمًا، وأقلّهم تكلّفًا، اختارهم اللَّه لصحبة نبيه، ونصرة دينه، وأنزل عليهم ملائكته في بدر والخندق وحُنين، وهم الذين أثنى عليهم اللَّه تعالى في كتابه في عدد من سوره، وأثنى عليهم رسولُه ﷺ في عدد من أحاديثه المستفضية، وأكد ذلك تاريخهم وسيرتهم ومآثرهم، فهم الذين حفظوا القرآن، وهم الذين رووا السنة، وهم الذين فتحوا الفتوح، ونشروا الإسلام في الأمم، وهم تلاميذ المدرسة المحمدية، وثمار غرس التربية النبوية. وهم أَوْلى مَن ينطبق عليهم قول اللَّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

وهم طليعة الأمة وأسوتها في العلم والعمل، وأئمتها في الجهاد والاجتهاد، وتلاميذُهم من التابعين على قدمهم، وإنْ لم يبلغوا مبلغَهم: «**خيرُ القرون قرني، ثم الذين يلونهم**».

فمن شكَّكَ في عَظَمَة هذا الجيل وفي أخلاقه ومواقفه، فقد شكك في قيمة التربية المحمدية، وهي الصورة المعتمة التي رسمها الشيعة لجيل الصحابة[24]،

---

(24) قال الخطيب البغدادي في كتابه «الكفاية» (ص 49): قال الحافظ أبو زرعة الرازي: «إذا رأيتَ الرجلَ ينتقص أحدًا من أصحابِ رسول اللَّه ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أنّ الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وإنما يريدون أن يجرّحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة.

مناقضة للصورة المشرقة لوضيئة التي رسمها أهل السنة والجماعة، وهذا ما وضّحه علّامتنا الندوي في رسالته الفريدة: «صورتان متضادتان» لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ الدعوية والتربوية، وسيرة الجيل المثال الأول عند أهل السنة والشيعة الإمامية.

5 - التنويه بقضية فلسطين وتحريرها:

والركيزة الخامسة عشرة: هي التنويه بقضية فلسطين، فقضية فلسطين ليست قضية الفلسطينيين وحدهم، ولا العرب وحدهم، بل هي قضية المسلمين جميعًا، فلا بد من إيقاظ الأمة لخطرها، وتنبيهها على ضرورة التكاتف لتحريرها، واتخاذ الأسباب، ومراعاة السنن المطلوبة لاستعادتها. وليست هذه أول مرة تُحتّل فلسطين من قِبل أعداء الدين والأمة، فقد احتُلّت أيام الحروب الصليبية نحو مائتي عام، وأُسر المسجد الأقصى تسعين سنة كاملة، حتى هيأ اللَّه لهذه الأمة رجالًا أفذاذًا، جددوا شباب الأمة بالإيمان، وإحياء روح الكفاح، ومعنى الجهاد في سبيل اللَّه، مثل: «نور الدين»، و«صلاح الدين» الذي أشاد به الشيخ الندوي كثيرًا في كتبه ورسائله.

ولا سبيل إلى تحرير فلسطين إلا بهذه الطريق، وعلى نفس هذا المنهاج: تجميع الأمة على الإسلام، وتجديد روحها بالإيمان، وتربية رجالها على الجهاد، وقد كتب في ذلك الشيخ مقالات ورسائل، أظهرها في كتابه: «المسلمون وقضية فلسطين».

6 - العناية بالتربية الإسلامية الحرّة:

والركيزة السادسة عشرة: هي العناية بالتربية الإسلامية الحرة المستقلة التي لا تستمد فلسفتها وأهدافها من الغرب ولا من الشرق، وإنما تستمد فلسفتها من

الإسلام: عقيدة وشريعة، وقيمًا وأخلاقًا، في حين تقتبس وسائلها وآلياتها من حيث شاءت، في إطار أصولها المرعية، فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها. وهو ينكر على التعليم القديم طرائقه في العناية بالألفاظ والجدليات، كما ينكر على التعليم الحديث إغفاله للروح وأهداف الحياة، وينقل عن إقبال قوله: إن التعليم الحديث لا يعلِّم عينَ الطالب الدموع، ولا قلبه الخشوع!

ولقد أولى شيخُنا جانب التربية اهتمامًا بالغًا؛ لأنها هي التي تصنع أجيال المستقبل، والتهاون فيها تهاون في الثروة البشرية للأمة، وقد نقل الشيخ عن بعض شعراء الهند: «إن فرعون كان يكفيه عن تذبيح بني إسرائيل: أن يُنشئ لهم كلية يكيِّف عقولهم فيها كما يريد، دون أن يريق دمًا، ولكنه كان غبيًّا!».

كتب الشيخ في ذلك عدة رسائل، أبرزها: «التربية الإسلامية الحرة»، كما ناقش كثيرًا من قضايا التربية في كتابه: «كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب؟». كما شارك الشيخ بنفسه في هذا المجال علمًا وعملًا. ولا سيما من خلال مؤسسته التربوية الكبيرة: «دار العلوم – ندوة العلماء» وكلياتها ومعاهدها.

٧ - العناية بالطفولة والنشء:

والركيزة السابعة عشرة: هي العناية بالطفولة، والكتابة للأطفال والناشئين بوصفهم رجال الغد، وصُنَّاع تاريخ الأمم في المستقبل. وقد التفت الشيخ إلى هذا الأمر الخطير، وهو في الثلاثينات من عمره. وكتبَ مجموعةً من «قصص النبيين» للأطفال، في لغة سهلة، وأسلوب عذب، وطريقة شائقة، مضمّنًا إياها ما يجب تضمينه من المعاني والقيم، ومن الدروس والعبر، ومن العقائد والمُثل، حتى قال بعض العلماء: إنها علمُ توحيد جديد للأطفال.

وأثنى عليها الأديبُ الكبير الشهيد سيد قطب الذي مارس هذا العمل أيضًا من قديم مع الأستاذ السحار، وبعد ثلاثين سنة أو أكثر عاد الشيخ فأكمل قصص الأنبياء، وختمها بـ «سيرة خاتم النبيين ﷺ»، كما أنشأ مجموعة «قصص من التاريخ الإسلامي» للأطفال أيضًا، وقال: إنه يرجو أن ينالَ بهذه الخطوة تقديرَ رجال التربية، وأن تليها خطوات، وتؤلف مجموعات.

8 - إعداد العلماء والدعاة الربانيين المعاصرين:

والركيزة الثامنة عشرة: هي العمل الدءوب لإعداد العلماء والدعاة الربانيين، الذين يجمعون بين المعرفة الإسلامية، والرؤية العصرية، مع الغيرة الإيمانية، والأخلاق الربانية، وهذا ما اجتهد الشيخ في أن يسهمَ فيه بنفسه عن طريق التدريس في دار العلوم، ثم عن طريق الاشتراك في مجالس الجامعات والمؤسسات التعليمية في الهند، وفي غيرها، مثل: «المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية» بالمدينة المنورة.

وهو يرى أنَّ المسلمين أحوج ما يكونون اليوم إلى الداعية البصير، والعالم المتمكن، الذي إذا استقضي قضى بحق، وإذا استُفتي أفتى على بيّنة، وإذا دعا إلى اللَّه دعا على بصيرة. فهذا النوع هو «مِلْح» هذه الأمة، الذي لا تصلح الأمة بغيره.

9 - ترشيد الصحوة والحركات الإسلامية:

والركيزة التاسعة عشرة: هي ترشيد الصحوة الإسلامية، التي يشهدها العالم الإسلامي، بل يشهدها المسلمون في كل مكان، حتى خارج العالم الإسلامي، حيث توجد الأقليات والجاليات الإسلامية في أوروبا والأمريكتين والشرق

الأقصى وغيرها. وهي صحوة عقول وقلوب وعزائم[25]، ولكن يُخشى على الصحوة من نفسها أكثر من غيرها. فتتآكل من الداخل، قبل أن تُضرب من الخارج.

وأعظم ما يُخشى على الصحوة: الغلو والتشديد في غير موضعه، والتمسك بالقشور وترك اللباب، والاشتغال الزائد بالجزئيات والخلافيات، وسوء الظن بالمسلمين إلى حد التأثيم والتضليل، بل التكفير.

والشيخ بطبيعته رجل معتدل في تفكيره وفي سلوكه، وفي حياته كلها: فهو قديم جديد، وهو تراثي عصري، وهو سلفي وصوفي، ثابت ومتطور، في لين الحرير وصلابة الحديد. وهكذا يريد لجيل الصحوة أن يكون.

لم يقيّد الشيخ الندوي نفسه بالتزام جماعة معينة، فقد بقي حرًّا، يشرف على الجماعات من خارجها، فيرى من نواقصها ما لا يراه أعضاؤها، ويبصر نقاط ضعفها، فيوجه وينصح، وينقد ويسدد، ولعل في ذلك خيرًا. كما لا يدخر وسعًا في النصح لحكام المسلمين وزعمائهم ما وجد إلى ذلك سبيلًا. وخصوصًا أنه لا يطمع في شيء من أحد منهم.

20 - **دعوة غير المسلمين:**

وآخر هذه الركائز وهي المكملة للعشرين: دعوة غير المسلمين للإسلام، استكمالًا لما قامت به الأمة في العصور الأولى، وقد ساهم الشيخ في ذلك منذ عهد مبكر - وهو ابن الثانية والعشرين - بدعوة الدكتور أمبيدكر - زعيم المنبوذين -

(25) انظر في حقيقة هذه الصحوة وخصائصها: كتابنا: «الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي» طبعة دار الشروق بالقاهرة.

إلى الإسلام، ورحلته إلى بومباي في سبيل تلك الغاية.

وهو يرى أن فضل الأمة الإسلامية على غيرها إنما يتجلَّى في قيامها بواجب الدعوة إلى اللَّه، وأن البشرية اليوم - رغم بلوغها ما بلغت من العلم المادي والتطور التكنولوجي - أحوج ما تكون إلى رسالة الإسلام، حاجة الظمآن إلى الماء، والسقيم إلى الشفاء، والأمة الإسلامية هي وحدها التي تملك قارورة الدواء، ومضخة الإطفاء.

تلك هي الركائز العشرون، التي قام عليها فقه الدعوة، عند الإمام الندوي، وكل ركيزة منها تحتاج إلى شرح وتفصيل، أسأل اللَّه تعالى أن يعين عليه، ويوفق لإتمامه[26]. إنه سميع مجيب.

❋ ❋ ❋

(26) أرجو من تلاميذ الشيخ وتلاميذي أن يجعلوا من هذه الركائز العشرين: منطلقًا لرسائل علمية تتحدث عن الشيخ، وتقدمه للأجيال القادمة، وهذا من حق الشيخ الجليل عليهم. أدعو لي ولهم بالتوفيق.

إعلاء الوحي على العقل في الشرعيات

نكتفي هنا بإلقاء الضوء على الركيزة الثانية من ركائز الدعوة عند الشيخ أبي الحسن: وهو إعلاء الوحي على العقل في الشرعيات، وتتجلى في اعتبار الوحي هو المصدر الأوحد في المعرفة الدينية، فلا تتلقى العقيدة والتصور الصحيح للألوهية والنبوة والمعاد إلا منه، ولا تؤخذ الشريعة والأحكام الآمرة والناهية إلا منه.

ومهمة العقل – وإن أوتي من الذكاء والعبقرية ما أوتي – أن يفهم نصوص الوحي، وأن يفقه في ضوئها العقيدة التي تفسر الوجود، والشريعة التي تقرر العبادات، وتضبط السلوك والمعاملات، وفق أمر اللَّه تعالى ونهيه. ولكنَّ العقل ليس هو مصدر العقيدة ولا الشريعة.

من هذا يؤكد الشيخ أن النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة، والهداية الكاملة. ويدلك على ذلك أن القرآن الكريم يلح على أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات اللَّه وصفاء الحقيقة. وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة اللَّه تعالى المعرفة الصحيحة، التي لا يشوبها جهل ولا ضلال، ولا سوء فهم ولا سوء تعبير، ولا سبيل إلى معرفة اللَّه تعالى المعرفة الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم، لا يستقل بها العقل، ولا يغني فيها الذكاء، ولا تكفي سلامة الفطرة، وحدة الذهن، والإغراق في القياس، والغنى في التجارب.

وقد ذكر اللَّه تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة، وهم أهل الصدق وأهل التجربة، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 43]، وقرنوا الاعتراف

والتقرير بقولهم: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 43]، فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة اللَّه تعالى، وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها، الذي تمكنوا به من دخول الجنة والوصول إلى دار النعيم(27).

ضلال الفلسفة اليونانية وسر شقائها وخيبتها:

إذن قد ضل وتعب وجاهد في غير جهاد مَن أراد معرفة اللَّه تعالى - المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى، وما بينه وبين هذا العالم من صلة وكيفية إحاطته به، وقدرته عليه ونفوذ أحكامه فيه - عن طريق الأنبياء والمرسلين، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه، وذكائه وإلمامه ببعض العلوم والصنائع، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية، وإنتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضحم في بعض مجالات علمية، وحق عليهم قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66].

وهذا سر ضلال الفلسفة الإغريقية الإلهية وأقطابها ونوابغها، فقد غرهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الغني، وملاحمهم العظيمة التي نظموها، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة، فخاضوا في الإلهيات وفي موضوع الذات والصفات والخلق والإبداع، فجاءوا بالسخيف المرذول، وبالمتهافت المتساقط، وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال والتحكمات والتخمينات، التي صدق حجة الإسلام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصفها بقوله: «ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قُصارى المطلب فيها تخميناتٌ، لقيل: إنها ترهات، لا تفيد غلبات

(27) من كتاب: «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» (ص 26 - 29)، طبعة دار القلم بدمشق.

الظنون»[28].

وكذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول معلِّقًا على كلام الفلاسفة والحكماء: «ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل، كيف يتكلمون في غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين؟ ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردودًا، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولًا، بكلام فيه تلبيس وتدليس؟»[29].

قال الشيخ:

وحق عليهم قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: 19]، وقوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51].

وقد تأثرت فلسفتنا الإسلامية – مع الأسف – التي نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحدة بنفس نزعتها، وهي البحث التفصيلي في قضايا ليس عند الإنسان مبادئها ومقدماتها، وتسربت إليها هذه الروح الفلسفية العاتية التي تتعدى حدودها ولا تعرف قدرها، فجاءت بالتدقيق والتشقيق في مسائل الذات، وتأويل الأسماء والصفات، وتناولوه بالتشريح والتجزئة والتحليل، كأنهم في معمل كيماوي، تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا[30].

---

(28) «تهافت الفلاسفة» (ص 105).

(29) «منهاج السنة وبيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية» (3/ 272).

(30) «النبوة والأنبياء» (ص 22)، طبعة دار القلم بدمشق.

عجز الفلسفة عن إدراك ما وراء الطبيعة:

وهذا الذي قاله الشيخ في كتابه: «النبوة والأنبياء في القرآن» في مرحلة النضج يؤكد ما قاله الشيخ وهو في مقتبل شبابه، وهو يناهز الثلاثين من عمره، في محاضرته التي ألقاها عن: «الدين والمدنية» ودلّت على نبوغه المبكر، وعمق تفكيره وتحليله، وسعة أفقه. فقد ناقش قضية الفلسفة وموقفها من الإلهيات وما وراء الطبيعة مناقشة مستبصرة. فكان مما قاله:

«ولن يكون أيُّ اكتشاف علمي لأي طالب متمتع بالفطرة السليمة في تاريخ العلم الإنساني كله أبعثَ على الغرابة من اكتشاف أن الفلسفة التي تدعي أنها مؤسسة على العقل والاستدلال، وعلى الأصول المنطقية، استمرت نحو ألفي سنة وخمسمائة[31] في البحث عن قضايا لم تكن لديها أي معلومات عنها، حتى عن مبادئها الأولية، وظل النوابغ والأذكياء تائهين إلى هذه المدة الطويلة وراء غاية لم يكن عندهم من معالمها شيء! إنهم بحثوا عن ذات اللَّه وماهيته، وعن صفاته وحقيقتها، وعلاقتها بالذات ونسبتها إليها، وكيفية ظهور هذه الصفات وصدور أفعال اللَّه وكيفيتها، وحدوث العالم وقدمه، وعن الحياة بعد الموت، وعن قضايا أخرى من الإلهيات، وما بعد الطبيعة في ثقة وقطعية، وتفصيل وتدقيق، مما لا يوجد إلا عند الخبير الكيماوي لدى قيامه بالعمل التحليلي والتجارب الكيماوية.

ومما يبعث على الاستغراب: أن الناس لم يتفطنوا لهذا الخطأ في حياة الفلسفة الطويلة، ولم ينتبهوا لهذا الخطأ المبدئي، بالرغم من جولتهم في ميدان النقد والبحث بكل حرية، وكذلك لا توجد في مكتبة الفلسفة الضخمة أسماء فلاسفة رفعوا أصواتهم ضد هذه الطريقة الخاطئة إلا نادرًا جدًّا.

(31) مات سقراط سنة (399 ق. م)، وكانت قد ظهرت الفلسفة إلى حيز الوجود من قبل.

والذي تفطّنَ لهذه النكتة في تاريخ الفلسفة العربية تفطنًا جيـدًا، وقـرر في قـوة وبلاغة أن بضاعة الفلاسفة في الإلهيات وما وراء الطبيعة بضاعة مزجاة، هو نابغـة العرب – بل نابغة العالم في فلسفة التـاريخ وعلـوم العمـران – عبـد الـرحمن بـن خلدون (ت 808هـ – 1406م) الذي تناول هذا الأصل بالنقد في عـدة مواضـع من مقدمته الشهيرة، وكان عارفًا بحدود العقل، وقصوره في هذا المجال. ويقتطف الشيخ هنا من مقدمته ما يوضح الموضوع، إذ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ولا تثقنَّ بما يزعمُ لك الفكرُ من أنه مقتدِرٌ على الإحاطة بالكائنات وأسـبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسَفِّهْ رأيه في ذلك، واعلم أنَّ الوجود عند كل مدرِكٍ في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلـك، والحق من ورائه، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجـود عنـده في المحسوسـات الأربع والمعقولات، ويسقط مـن الوجـود عنـده صـنف المسـموعات. وكـذلك الأعمى أيضًا يسقط عنده صنف المرئيات. ولولا ما يـردهم إلى ذلـك مـن تقليـد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا بـه، لكـنّهم يتبعـون الكافـة في إثبات هذه الأصناف، لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهـم، ولـو سُـئل الحيـوان الأعجم ونطق لوجدناه منكِرًا للمعقولات وساقطةً لديه الكليات.

فإذا علمتَ هذا فلعلَّ هناك ضربًا مـن الإدراك غـير مـدركاتنا؛ لأن إدراكاتنـا مخلوقة محدثة، وخلق اللَّه أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول، والوجـود أوسـع نطاقًا من ذلك، واللَّه من ورائهم محيط، فـاتَّهم إدراكـك ومـدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك، فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفك؛ لأنه من طورٍ فوق إدراكك، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وذلـك ليس بقادح في العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب

فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإنَّ ذلك طمع في محال، ومثال ذلك رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال، وهذا لا يدرك، وهو لا يدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق، لكنَّ العقل قد يقف عنده، ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط باللَّه وبصفاته، فإنه ذرةٌ من ذرات الوجود»[32].

وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت: 728هـ) في مؤلفاته في عدة مواضع، وأبان عن هذه الحقيقة في بحوثه الكلامية مرارًا، وردّ على أخطاء المتكلمين أصلًا وفرعًا بكل جرأة وشجاعة[33].

وأما مَن كشف الغطاء عن هذا الانخداع النفسي- في دور الفلسفة الأخيرة ودحض الفلسفة الخيالية هذا هو الفيلسوف الألماني الشهير «عمانويل كانت – **Emmanuel Kant**» (1729 – 1804م) الذي عيّنَ حدودَ العقل، متجاسرًا مصرِّحًا مبيِّنًا، كما يقول الفيلسوف المسلم الدكتور محمد إقبال في كتابه: «تجديد الفكر الديني في الإسلام»: «إنه هدم أعمال المتنورين، وحوَّلها إلى كومة تراب! وذلك عن طريق كتابه الشهير«نقد العقل الخالص - **Critque of pure qeason**».

قصور الفلسفة الدينية «أو علم الكلام»:

ويعرض الشيخ الندوي في هذا المقام لنوع خاص من الفلسفة، فُتِنَ به الكثيرون، وهو ما يمكن تسميته: الفلسفة الدينية أو علم الكلام فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(32) «مقدمة ابن خلدون» (ص: 322، 323)، طبعة الهيئة المصرية.

(33) راجع مؤلفاته: «نقض المنطق»، و «الرد على المنطقيين»، وكتاب: «النبوات» على سبيل المثال.

«من تمام العدل أن ننتقد في هـذه الدراسـة تلـك الفلسـفة التـي نشـأت بـإزاء الفلسفة القديمة للدفاع عن الدين، ولكنها لم تكـن الفلسـفة بـذاتها، وإن كانـت تشبهها في الموضوع، وفي طريق البحث والاستدلال والفكر الأساسي، أعني محاولة إثبات ذات اللَّه وصفاته وقضايا ما وراء العقل، عن طريق العقل، وهمـا - بـالرغم من الخلاف، والصراع بينهما - يلتقيان في الأساس، وأعني بالفلسفة الدينية هذه: «علم الكلام» ذلك الذي حلل ودقق هذه المسائل الإلهية وقضايا ما بعـد الطبيعـة، مثل الفلسفة، وأتى بتدقيقات وتقعيرات كانت سمةَ الفلسفة اليونانية وشـعارها، وإن كان كلّ منهما يختلف عن صاحبه في النتائج التي توصل إليها، والغايات التـي توخاها».

وينتقد الشيخ هنا علم الكلام؛ لأنه لم يستخدم في هجومه على الفلسفة اليونانية سلاحًا يَعُدُّه أمضى الأسلحة، وهو محدودية العقل الإنساني، ووسائل معرفته، وهو ما صرح به ابـن رشـد في دفاعـه عـن الفلاسـفة، وردَّه عـلى الغـزالي في: «تهـافت التهافت» الذي قال فيه:

«هذا كله عندي تعدٍّ على الشريعة، وفحص عما لم تأمر به الشريعة؛ لكـون قُـوى البشر مقصرة عن هذا، وذلك أن ليس كل ما سكتَ عنه الشرع من العلوم يجب أن يفحص عنه، ويصرح للجمهور بما أدى إليه النظر أنه من عقائد الشرع، فإنه يتولد عن مثل هذا: التخليط العظيم، فينبغي أن يمسك عن هذه المعاني كل مـا سـكت عنه الشرع، ويعرف الجمهـور أنَّ عقـول النـاس مقصّـرة عـن الخـوض في هـذه الأشياء»[34].

أما الكتاب الذي صنفه في الرد على المتكلمين باسم: «الكشف عن مناهج الأدلة

(34) «تهافت التهافت» (ص: 110).

في عقائد الملة» فقد أثبتَ فيه قوة الاستدلال القرآني، وتفوّقه إزاء أسلوب الاستدلال الكلامي بقطعية، ويعتبَرُ نموذجًا جيدًا لسلامة فهمه: إنه أبانَ فيه في عدة مواضع عجز الجمهور عن إدراك هذه الأمور والمسائل.

ويعقّب الشيخ الندوي على كلام ابن رشد تعقيب المؤمن الناضج الرشيد الواثق من نفسه، الواقف على أرض صُلْبة، فيقول: «إنني أوافق رأيه هذا كليًّا، بأنَّ قوى البشر وعقولهم مقصّرة عن إدراك هذه المسائل، والبحث عنها، والتأمل فيها، ولكنني لا أعتقد الفلاسفة إلا بشرًا! وما كان أفلاطون، وأرسطو، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد نفسه إلا أفرادًا من النوع البشري فيما أعتقد، فكانوا - كسائر أفراد الجمهور - مكلفين بأن يعرفوا قدرهم، ويؤمنوا بأن عقولهم كعقول سائر الناس، مقصرة عن الخوض في هذه الحقائق التي رزقوا وسائل الاقتناع بها، والاحتواء عليها، ولم يملكوا من المعلومات الأولية والمواد والمقدمات ما يتواصلوا بترتيبها إلى النتائج القطعية والمعرفة الصحيحة.

وكانت طبقة المعتزلة أكثر تنوّرًا، وأخضع للعقل من هؤلاء الفلاسفة الدينيين، الذي قاسوا اللَّه على الإنسان، والآخرة على الدنيا! ثم بحثوا عنهما من حيث الأحكام الإنسانية وقوانين هذا العالم، بغاية الجرأة والحرية، وبصرف النظر عن حدود العقل تمامًا».

وينقل الشيخ هنا عن مؤرّخ كبير وعالم معاصر، طالما أبدى إعجابه بالمعتزلة، وأشاد بنزعتهم العقلية، وحريتهم الفكرية، ولكنه يبرز هنا ضعفهم بإنصاف وصراحة، وهو الأستاذ «أحمد أمين» مؤرخ الفكر الإسلامي في كتبه الشهيرة: «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«ظهر الإسلام». إذ يقول في كتابه: «ضحى الإسلام»:

«ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد، أعني في قياس اللَّه على الإنسان، وإخضاع اللَّه تعالى لقوانين هذا العالم، فقد ألزموا اللَّه - مثلًا - بالعدل كما يتصوره الإنسان، وكما هو النظام الدنيوي، وفاتهم أنَّ معنى العدل - حتى في الدنيا - معنى نسبي يتغير تصوُّره بتغير الزمان، وأنَّ ما كان عدلًا في القرون الوسطى يُعدُّ ظلمًا الآن، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم اللَّه؟! وكذلك الشأن في قولهم في الحسن والقبح، والصلاح والأصلح ... إنّا نرى أن الإنسان إذا ضاق نظرُه حكم على الأشياء حكمًا، فإذا اتسع نظرُه تغير حكمه»[35].

«وكذلك قولُهم في «أن صفات اللَّه هي عين اللَّه أو غير اللَّه» كلُّ براهينهم مبنية على قياس الغائب على الشاهد، ولكنَّ الشبه معدوم، وقد فرضوا أن العينية والغيرية، والزمانية والمكانية، والسببية والمسببية، ونحوها قوانين لازمة لكل موجود، هذا - في نظري - خطأ محض، فهي قوانين إنسانية، وإن تسامحنا قليلًا قلنا: إنها قوانين عالمنا هذا. لسنا نستطيع القولَ بأنها تنطبق على غير عالمنا أو لا تنطبق، فإصدار حكمنا على اللَّه - على اعتقاد أنها قوانين شاملة للإنسان واللَّه - جرأةٌ لا يرتضيها العقل الذي يعرف قدره، ولا يعدو طوره، وليس هذا بعيب المعتزلة وحدهم، بل عيب من أتى بعدهم من علماء الكلام كذلك»[36].

إن ما قرره الشيخ الندوي ودلل عليه في دراساته القديمة والحديثة، قد أكده لنا بوضوح وجلاء، العلم الحديث في أحدث وثباته، وهو محدودية العقل الإنساني، وإن بلغ ما بلغ من اكتشاف ظواهر الكون المادي وقوانينه، وأنَّ هناك مناطق محرّمة على العقل، لا يمكنه اقتحامها، وهو يقف أمامها عاجزًا؛ لأنه لا يملك آليات

(35) «ضحى الإسلام» (3/ 69)، «المعتزلة».
(36) المصدر السابق (3/ 70).

اكتشافها، ولا سبيل له إلى الدخول فيها؛ لأنه لا يحمل «تأشيرة» الدخول إليها.

إن بعض الفلاسفة قد ظن يومًا أنه يملك الحقيقة كل الحقيقة، وهيهات هيهات، فما من فيلسوف له فكرة معينة، مادية أو روحية، مثالية أو واقعية، إلا وجدنا فيلسوفًا آخر يناقضه ويرد عليه، من منطلق العقل الذي آمن به كلاهما واعتمد عليه.

حتى قال أحد أساتذة الفلسفة، وهو شيخنا الدكتور «عبد الحليم محمود» رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إنَّ الفلسفة لا رأي لها؛ لأنها تقرِّر الشيء وضده، ولا تستطيع أن تظفر منها بطائل، أو تخرج بيقين في شيء!

المصدر الوحيد لليقين هو الوحي الإلهي. فهو الذي يجيب عن الأسئلة القديمة الجديدة: مِن أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟ إجابة تشفي الصدور، وتحل العقد، وتزيل الشبهات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40][37].

ولقد وجدنا كبار النظار وأئمة المعقولات في تراثنا الإسلامي، الذين خاضوا لجج الفلسفات المختلفة، وغاصوا في أعماق البحوث والمناقشات النظرية، وتمنوا في نهاية المطاف أن يموتوا على إيمان العجائز!

وقال أحدهم، وهو فخر الدين الرازي (ت: 606هـ) يقول في أواخر ما كتب[38]: لقد تأملت المناهج الفلسفية، والطرق الكلامية، فما وجدتها تشفي غليلًا، أو تروي عليلًا. ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن في النفي وفي الإثبات ... ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

(37) انظر كتاب «الفلسفة والحقيقة» للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

(38) قاله في كتابه «أقسام اللذات».

وقال العلامة الشهرستاني يتحدث عن نهايات المتفلسفين والمتكلمين:

لقد طفت تلك المعاهد كلها وسرَّحتُ طرفي بين تلك المعالم!
فلم أر إلا واضعًا كفَّ حائرٍ على ذقن، أو قارعًا سِنَّ نادمِ!

وكفى بهؤلاء شهودًا، لأنها شهادة من أهل الصنعة.

* * *

الباب الثالث
أبو الحسن الندوي
مُصلحًا ومُجدِّدًا

- ملامح المصلح في شخصية الشيخ.
- نظرية الشيخ في الإصلاح.
- قرب منهج الشيخ من منهج الشيخ البنا.
- الشيخ والتغيير السياسي.
- الجانب الفكري في منهج الشيخ.
- التغيير عن طريق تكوين الجماعات.
- منهج أفضل للإصلاح كما يراه الشيخ.

❊ ❊ ❊

الباب الثالث

أبو الحسن الندوي

مصلحًا ومجدِّدًا

لا يشكُّ من يقرأ كتبَ الإمام الندوي، ويستمع إلى محاضراته: أنه أحد الرجال المصلحين في هذا العصر، وأن له نظرية متميزة في الإصلاح والنهوض بالأمة، وبعثها من جديد، لتقوم بدورها ورسالتها التي كلفها اللَّه القيام بها، وهو لم يؤلِّف جمعية رسمية تقوم بهذه المهمة، ولكنه صاحب مدرسة فكرية وإيمانية لها سماتها، ولها مذاقها وأدبياتها الخاصة بها.

ملامح المصلح:

أول ملامح المصلح: أن يكون عارفًا بمشكلات أمته، وما تطمح إليه من آمال، وما يعترضها من عقبات.

وثاني ملامحه: أن تكون له رؤية واضحة في علاج هذه المشكلات، ووضع الحلول المناسبة لها. فالملمح الأول يمثل تشخيص الداء، والثاني يمثل وصف الدواء.

والملمح الثالث: هو تهيئة المريض لتناول الدواء، بإقناعه بفائدته وجدواه، وضرورة تناوله، وصبره على مرارته، ففيه وحده الشفاء، وذهاب الداء بإذن اللَّه.

هذا ما يصنعه الأطباء الناجحون مع المرضى من الأفراد، وهو ما يصنعه المصلحون الموفّقون مع المرضى من الأمم والمجتمعات.

وهذا ما نلمسه بجلاء في موقف العلامة الندوي من أدواء الأمة وأدويتها.

أثر الأحداث التي عاصرها:

عاش العلامة الندوي أحداث القرن الرابع عشر الهجري وأوائل القرن الخامس عشر - القرن العشرين الميلادي، وتأثر - ولا شك - بما جرى حوله من أحداث كبرى، في الهند، وفي العالم الإسلامي، وفي العالم كله شرقيه وغربيه.

ومثله لا تمر الأحداث الكبيرة عليه، وهو في غيبة أو غفلة عنها، بل هو يحسُّ بها، ويتفاعل معها بعقله وقلبه، ربما كانت يده قصيرة، ولكنَّ عينه بصيرة، ترى وترقب، وتنقل ذلك إلى العقل، فيفكر ويتأمل، وإلى القلب فيشعر ويتألم، وربما أنشد مع الشاعر:

قَلْبي يُحِسُّ، وَهَذِهِ عَيْني تَرَى ما حِيْلتَي فِيْما أُحِسُّ وَما أَرى؟!

لقد شاهد الشيخ تحكم الإنكليز في بلاده «الهند الكبرى» بعد أن كان المسلمون هم حكامها لعدة قرون، وبعد أن تركوا فيها آثارًا رائعة تنطق بعلو كعبهم في الحضارة، وبما كان لهم من سبق في مضمار التقدم والإبداع المادي، بجوار ما كان لهم من فضل في الجانب الروحي والأخلاقي.

وشاهد الشيخ مقاومة بلاده للاحتلال البريطاني، ودور المسلمين التاريخي في هذه المقاومة، ودور علماء المسلمين الكبار في قيادتها، والتحريض عليها، مثل مولانا أبي الكلام آزاد، والشيخ محمود حسن شيخ الهند، والشيخ أحمد المدني شيخ الحديث، وكبار مشايخ دار العلوم بديوبند.

وشاهد تحرّر الهند من الاستعمار البريطاني، ثم انقسام الهند إلى دولتين: واحدة للمسلمين، وهي باكستان «الشرقية والغربية»، والأخرى للهندوس، وهي

هندستان، واختيار عشرات الملايين من المسلمين أن يبقوا في الهند مع تراثهم وتاريخهم، وجوامعهم «جامعاتهم» وحضارتهم وآثار أسلافهم، وإن أصابهم ما أصابهم من المحن والآلام بعد ذلك.

ولا شك أنه رأى - كما رأى الشيخ حسن البنا وغيره من المصلحين - البلاد الإسلامية قد احتُلت من الاستعمار الغربي الرأسمالي، أو الاستعمار الشرقي الشيوعي، مثل الجمهوريات الإسلامية في آسيا، ثم رأى حركات التحرر من هذا الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، تشتعل جذوتها في كل مكان، وتحقق انتصارات على الاستعمارين العسكري والسياسي، وتطردهما من ديارها، وكثيرًا ما كان لعلماء الدين، والقادة الإسلاميين، والجماعات الدينية دورها المؤثر في هذا التحرير، وإن كان الذي يؤسَف له: أن أكثر هذه البلاد تحررت من الاستعمار العسكري، وبقي الاستعمار الفكري، والاستعمار التشريعي، والاستعمار الاجتماعي، والاستعمار الاقتصادي.

وكثيرًا ما تولى قيادة هذه البلاد بعد تحريرها العلمانيون، الذين يقطفون ثمرةً لم يغرسوها، لغفلة الإسلاميين، وعدم درايتهم، وتفرّق جماعاتهم، ووقوف القوى المعادية للإسلام مع أعدائهم، وهكذا رأينا هذه النتيجة واضحة: الإسلاميون يزرعون، والعلمانيون يحصدون.

وشاهد الشيخ ولا شك منذ صباه كيف زُرعَ هذا الجسم الغريب في جسد الأمة العربية والإسلامية، وهو «الوجود اليهودي الصهيوني» في أرض فلسطين، بوعد من بريطانيا، وتعهّد ورعاية من جانبها، أعوام انتدابها على فلسطين من قبل «عصبة الأمم» والسماح للهجرات اليهودية الجماعية المكثفة إلى فلسطين، وتأييد قيام المنظمات الإرهابية الصهيونية فيها لتقتلَ وتغتالَ وتدمر، في حين حرّمت على أهل

البلاد الفلسطينيين حمل أي قطعة سلاح، واعتبرت ذلك جريمة يُعاقَب عليها بأشد العقوبات. وما انتهت أعوام الانتداب الثلاثون، حتى كان الكيان الصهيوني قد ترعرع ونما وشبَّ عن الطوق، وأمسى قادرًا أن يعلن قيام دولته الجديدة، متحديًا عشرات الملايين، ومئات الملايين من العرب والمسلمين.

كان الشيخ الندوي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، إذ أُسقطت الخلافة العثمانية – التي كانت على علاتها جُنّةً للإسلام والمسلمين – خصومهم من اليهود بمؤامرة عالمية من اليهود والنصارى والوثنيين، الذين كانوا ولا يزالون وسيظلون يتربصون بالإسلام والمسلمين الدوائر، ووقع العالم الإسلامي عمومًا والعالم العربي خصوصًا أسيرًا مكبّلًا في أيدي الاستعمار الغربي البغيض الذي جعل منهما بقرة حلوبًا وناقة رطوبًا، يحلب ضرعها ويسيء علفها.

أنشبَ الاستعمار الغربي أظافره في ربوع العالم العربي تحت مخطط مدروس، يمتصُّ خيراته، ويخرّب أقطاره، ويحرّش بين أبنائه، ويغزو حضارته وثقافته، ويعمل على توهين عُرَا التضامن والاتحاد والوئام والتآلف، ويسعى لإصابة لغته العربية بلوثات الرطانة والعجمة، وإضعاف ثقة أبنائها بها وبمستقبلها، متهمًا إياها بالضعف عن استيعاب معطيات التقدم، ومسايرة ركب الرقي والحضارة الفتية الحديثة.

انطبع ذلك كله في مخيلة الغلام فالفتى أبي الحسن، وتفاعل مع الموقف الحزين المؤلم الذي شاهد العالم الإسلامي والعالم العربي يعيشه ويقتات منه، وهو إلى جانب تشرّبه للعلم، وحبّه العجيب للاطلاع والدراسة – مرهف الحسِّ، رقيق الشعور، مؤمن القلب، صافي النفس، تربّى في بيئة لحمتها وسداها الدين والجهاد، والعزيمة والدعوة، وولد في حجر أسرة تنحدر من السلالة النبوية، وتتمسك بالموروثات

العقائدية والأخلاقية، وخصائص البيت الحسنيّ الشريف، وتعتز بها، وتعدها أغلى نعمة بعد نعمة الإيمان، فعاهد اللَّه أن لا يألو جُهدًا لأجل العمل على تغيير الحال، والعودة بالأمة إلى ما فيه عِزّها وعلوّها وفخارها، ودعوتها المتصلة إلى الأخذ بالأسباب التي تمنحها المنعة والتمكين في الأرض، وتغير انحطاطها بالرقي، وتخلفها بالتقدم.

وفي جانب آخر، عاش أواخر عهد الاستعمار الإنكليزي بوطنه الهند، ورأى الظلم الذي كان يصبّه أنواعًا وأشكالًا على أبنائها، ولا سيما المسلمين الذين منهم نزع الحكم والسلطة، فحاول الاستعمار - جهده أن يجعلهم أذلة بعدما كانوا أعزة، وأن يطمس من أرض الهند التي حكموها ألف سنة جميع معالم الإسلام. وعايش النضال النبيل الطويل الذي خاضه العلماء الغياري والقادة المخلصون، من أجل تحرير البلاد من نير الاستعمار، ثم عايش استقلال البلاد، وتقسيم الهند بين دولتين: الهند وباكستان؛ ورأى أن جهود العلماء والقادة تتبعثر، وأن الاستقلال لم يجنِ منه المسلمون إلا الحصاد المر، وأن حرمات المسلمين وأعراضهم وأرواحهم وممتلكاتهم معرضة في الهند المستقلة للخطر، كما أن دينهم وعقيدتهم وهويتهم مهددة بالعلمانية المغلوبة بقوة الوثنية المتطرفة، والعصبية الهندوسية العدوانية، التي قررت منذ عهدها الأول بتباشير الاستقلال أنها لن ترعى في مؤمن إلًّا ولا ذمة، ومهما أثبت المسلمون مواطنتهم الصادقة ووفاءهم وولاءهم للوطن، وقدموا تضحيات مالية وروحية من أجل أبناء الوطن.

فالعمل على استعادة المجد الإسلامي المفقود بالنسبة إلى العالم العربي والعالم الإسلامي، والعمل على الحفاظ على الدين والعقيدة أولًا وأرواح المسلمين وممتلكاتهم ثانيًا بالنسبة إلى شبه القارة الهندية، جعلهما الشيخ أبو الحسن الندوي

ومعه زميله الوفي وصديقه الصفي، فضيلة الشيخ «محمد منظور النعماني» صاحب مجلة «الفرقان» المتوفى (1417هـ - 1997م) أكبر هدف وأعظم مهمة، ركز عليها جهوده وجهاده، ووقف عليها معظم كتاباته وخطاباته.

اجتاز مراحل عصيبة، ومُني بعقبات، وتجرع المرار، وعاش منذ طفولته حتى دخول معترك الحياة وعمله مدرّسًا وداعيًا، قلة الوسائل الهادية، إلى جانب كونه نحيل الجسم، معروق اللحم، منحرف الصحة في معظم أدوار حياته، ولكنه لم يحد عن الجادة، ولم يقبل المساومة على الهدف الذي حدده، والغاية التي وضعها نُصب عينيه، ولم يتردد، ولم يشك في صحة الجهة، واستقامة الطريق، ولم تقدر الظروف أن تجعله يسقط في وسط الطريق، مثل كثير من الكتَّاب والدعاة والمفكرين، الذين أسكرتهم المغريات في نهاية المشوار، إن لم يؤخذوا بها في بدايته(39).

نظرية الشيخ الندوي في الإصلاح:

لقد كان الشيخ الندوي مطلعًا على مشكلات أمته الإسلامية، وقد طوّف بها في رحلاته، وخالط علماءها وأدباءها، وقادتها وزعماءها، وحاضر في جوامعها وجامعاتها، وخاطب خاصتها وعامتها، وعرف ما تعانيه الأمة من أمراض وأدواء، بعضها أدواء فكرية، مثل التعلق بالغرب، والسير في ركابه، والجري وراء فلسفاته ونظرياته ومذاهبه، وفقدان اليقين والثقة بعظمة الإسلام وخلود رسالته، وروعة أحكامه، إلى حد انتشار الردة الفكرية التي كتبَ الشيخ عنها رسالته أو مقالته البديعة التي جعل عنوانها: «ردة ولا أبا بكر لها!».

وبعض هذه الأدواء والأمراض أدواء أخلاقية وسلوكية، جعلت الأمة تنتشر-

(39) انظر: مقالة الشيخ نور عالم الأميني الندوي مجلة «البعث الإسلامي» العدد الخاص الذي صدر بمناسبة وفاة الشيخ أبي الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ.

فيها أخلاق المنافقين، وتتبع سبيل المفسدين، ولا تسلك سبيل المؤمنين، ولا تتبع صراطهم المستقيم، صراط الذين أنعم اللَّه عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

لقد فشا في الأمة حب الدنيا، وكراهية الموت، وهو سر الوهن الذي أصاب أنفسهم، ونزع الرهبة من صدور أعدائهم.

وشاعت فيهم ظاهرة إضاعة الصلوات، واتباع الشهوات، والاستهانة بالفرائض، واقتراف المحارم، وترك الائتمار بالمعروف، والتناهي عن المنكر، وضُيّعت الأمانة، ووُسدَ الأمر إلى غير أهله.

وسبب ذلك كله في نظر الشيخ: انطفاء جمرة الإيمان في صدور الناس، تلك الجمرة التي كانت تحفزهم إلى الخير إذا تكاسلوا وتقاعسوا، وتزجرهم عن الشر إذا أغرتهم المغريات.

وإنما تخبو شعلة الإيمان في القلوب إذا حُرم الناس الدعاة الربانيين الصادقين، الذين يروون القلوب العطشى برحيق الإيمان، ويوقظون النفس الغافلة بهداية القرآن، ويداوون الأرواح المريضة بترياق العلم واليقين والإحسان.

وإذا حُرِمَ الناسُ الدعاةَ الربانيين ابتلوا بآخرين من الدعاة، وهم صنفان:

صنف من الدعاة على أبواب جهنم، من دعاهم إليها قذفوه فيها، كما وصفهم حديث حذيفة في «الصحيحين» لما سُئل النبيُّ ﷺ عنهم، قال: «**هم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**».

فهؤلاء هم الذين دعوا إلى تغريب الأمة، ونشروا فيها الفكرة الغربية بما تحمله من فلسفة مادية، ونظرة إباحية، وعصبية قومية، وهم الذين أجّجوا الصراع بين

هذه الفكرة والفكرة الإسلامية.

وهؤلاء هم الذين هيمنوا على أزمّة التعليم والتربية، والثقافة والإعلام في البلاد الإسلامية المختلفة، مكن لهم الاستعمار، الذي صنعهم على عينيه. وهيأ لهم أسباب النفوذ والتأثير، بما ملّكهم من سلطات لا ينازعهم فيها أحد، فسلطوا على عقول الأجيال وقلوبهم وأذواقهم وسلوكياتهم، يوجهونها كما يشاءون، بل يصنعونها كما يشاءون.

والصنف الثاني هم: دعاة الدين المزيفون، الذين يتحدثون عن الدين بألسنتهم، ولم تتشربه قلوبهم، ولم تمثله أعمالهم، تكذّب أفعالُهم أقوالَهم، ويكذِّب باطنُهم ظاهرَهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ 2 كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 2، 3].

هؤلاء الدعاة المحسوبون على الدين هم في الواقع فتنة لأهل الدين وعائق عن الوصول إلى اللَّه.

التركيز على إصلاح الفرد أولًا:

هنا يرى الشيخ أنَّ إصلاح المجتمعات لا يتمُّ إلا بصلاح أفرادها، فهم لبنات البناء، الذي لا يقوم البنيان إلا بسلامتها وقوتها. وإنما يتحقق صلاح الفرد من داخله لا من خارجه، ومن باطنه لا من ظاهره. أي بصلاح نفسه التي بين جنبيه قبل كل شيء، أو بصلاح تلك المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

ولهذا ركّز الإسلام على طهارة القلب، وسلامته من رذائل الشرك والنفاق، وسوء الأخلاق، وجاء في الحديث الصحيح: «**إن اللَّه تعالى لا ينظر إلى أجسامكم**

ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[40]، وأشار الرسول الكريم إلى صدره وقال: «**التقوى ها هنا ... ثلاثًا**»[41].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ 88 إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88، 89]، ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 33].

لهذا كان تركيز الشيخ على تزكية الأنفس، وإصلاح القلوب، فهي محور التغيير الحقيقي، وأساس الإصلاح الكامل، ولا يجدي تغيير الأنظمة والقوانين، والأوضاع السياسية والدستورية، ما لم يسبقها أو يصبحها تغيير نفسي- وروحي عميق، يغير ما بأنفس الأقوام، حتى يغير الله ما بها، وفقًا للسنة الثابتة التي قررها القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ولا غرو أن بدأ الرسول ﷺ بهذا الجانب التربوي الأصيل والمهم، في دار «الأرقم بن أبي الأرقم» في العهد المكي، يطهّرُ النفوسَ من أدران الجاهلية وأباطيلها في الاعتقاد، وخرافاتها في الفكر، وانحرافاتها في السلوك. ويربي أنفُسًا جديدة، زاكية طاهرة، مبرّأة من نقائص الجاهلية، متحلية بفضائل الإسلام، ومكارم أخلاقه.

ويرى الشيخ أن تطهير القلوب، وتزكية الأنفس، إنما هو عمل العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين، الذين جعلوا صلاتهم ونسكهم لله، ومحياهم ومماتهم له وأصبحوا وأمسوا متحرّقين إلى هداية الأمة، وبدعوتهم وإخلاصهم يُحوِّل الله

(40) رواه مسلم عن أبي هريرة.
(41) رواه مسلم عن أبي هريرة.

الضالين إلى الهداية، والعاصين إلى التوبة، والمنحرفين إلى الاستقامة، وهم لإخلاصهم يخرج الكلام من قلوبهم إلى قلوب الناس، فيجعل فيها كمسّ الكهرباء، وليسوا كمن يخرج الكلام من أطراف ألسنتهم، فلا يتجاوزا آذان مستمعيهم.

ومن أجل هذا آمن الشيخ بدور «جماعة الدعوة والتبليغ» فهم في رأيه الذين يستطيعون أن يغيروا الأنفس عن طريق الوعظ والإرشاد، والرفقة في السفر، والأسوة في الحضر، وأخذ الناس بالسنة والآداب الإسلامية.

ويرى الشيخ أن هناك مفتاحًا يمكنه أن يفتح كلَّ الأقفال، ذكره في بعض رسائله، ذلك المفتاح هو الإيمان، وهو الذي فتح به رسول الله ﷺ أقفال العرب، فأخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الظلمات إلى النور، وجعلهم بهذا الإيمان خير أمة أخرجت للناس.

يقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لقد كانت الحياة كلها أقفالًا معقدة، وأبوابًا مقفلة، كان العقل مقفلًا أعيا فتحُه الحكماء والفلاسفة، كان الضمير مقفلًا أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين، كانت القلوب مقفلة أعيا فتحها الحوادث والآيات، كانت المواهب مقفة أعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين، كانت المحكمة مقفلة أعيا فتحها المتظلمين والمتحاكمين، كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين، كان قصر الإمارة مقفلًا أعيا فتحه الشعب المظلوم، والفلاح المجهود، والعامل المنهوك. وكانت كنوزُ الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء، لقد حاول المصلحون

الكبار والمشرعون العظام فتحَ قفل من هذه الأقفال ففشلوا وأخفقوا، فإنَّ القفل لا يفتح بغير مفتاحه، وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة، وجرّبوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم، فإذا هي لا توافق الأقفال، وإذا هي لا تغني عنهم شيئًا، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال، فجرحوا أيديهم وكسروا آلتهم.

ثم مَنَّ اللَّه على العالم برسالة محمد ﷺ، وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو: «الإيمان باللَّه والرسول واليوم الآخر» ففتح هذه الأقفال المعقدة قفلًا قفلًا، وفتحَ به هذه الأبواب بابًا بابًا، وضع هذا المفتاح النبوي على العقل الملتوي فتفتح ونشط واستطاع أن ينتفع بآيات اللَّه في الآفاق والأنفس، ويتوصل مع العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، يعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام.

وكان قبل ذلك محاميًا مأجورًا يدافع عن كل قضية، حقًّا وباطلًا. وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه، وعلى الشعور الميت فانتعش، وعاش، وتحولت النفس الأمّارة بالسوء إلى نفسٍ مطمئنة، لا تسيغ الباطل، ولا تتحمل الإثم، حتى يعترف الجاني أمام الرسول ﷺ بجريمته ويلح على العقاب الأليم الشديد، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى، ويخفيه في لباسه، ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس، ويدفعه إلى الأمير؛ لأنه مالُ اللَّه الذي لا يجوز الخيانة فيه.

كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين، فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث، وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم، وتحنو على الضعيف.

وُضعَ هذا المفتاح على القوى المخنوقة، والمواهب الضائعة، فاشتعلت كاللهيب، وتدفقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح، فكان راعي الإبل راعي الأمم

وخليفة يحكم العالم، وأصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد.

وُضعَ المفتاح على المدرسة المقفلة، وقد هجرها المعلّمون، وزهد فيها المتعلمون، وسقطت قيمة العلم، وهان المعلّم، فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربي والمعلم، وقرن الدينَ بالعلمِ حتى كانت له دولة ونفاق، وأصبح كل مسجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلمًا لنفسه، ومعلِّمًا لغيره، ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم، وهو الدين.

وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضيًا عادلًا، وكل حاكم مسلم حكمًا مقسطًا، وأصبح المسلمون قوّامين للَّه شهداء بالقسط، ووجد الإيمان باللَّه وبيوم الدين فكثر العدل وقل الجدل، وفُقدت شهادة الزور والحكم بالجور.

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده، والأخ وإخوته، والرجل وزوجته، وتعدّى من الأسرة إلى المجتمع، فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرءوس والكبير والصغير، كلٌّ يريد أن يأخذ ما له، ولا يدفع ما عليه، وأصبحوا مطففين، إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرون، فغرس في الأسرة الإيمان، وحذرها من عقاب اللَّه، وقرأ عليها قول اللَّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، وقسّم المسئولية على الأسرة والمجتمع فقال: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»، وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة، ومجتمعًا عادلًا، وأوجد في أعضائه شعورًا عميقًا بالأمانة، وخوفًا شديدًا من الآخرة، حتى تورّع الأمراء وولاة الأمور، وتقشّفوا، وأصبح سيد القوم

خادمهم، ووالي الأمة كولي اليتيم: إن استغنى استعفَّ، وإن افتقر أكل بالمعروف، وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهَّدهم في الدنيا، ورغَّبهم في الآخرة، وأضاف الأموال إلى اللَّه، فقرأ عليهم: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7]، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: 33]، وحذّرهم من اكتناز وادّخار الأموال، وعدم الإنفاق في سبيل اللَّه.

أبرز رسول اللَّه ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن باللَّه، الخائف من عقاب اللَّه، الخاشع الأمين، المؤثِر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمادة، المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأنَّ الدنيا خُلِقت له، وأنه خُلق للآخرة.

فإذا كان هذا الفرد تاجرًا فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيرًا فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملًا فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنيًّا فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضيًا فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان واليًا فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيّدًا رئيسًا فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادمًا أو أجيرًا فهو الرجل القوي الأمين، وإذا كان أمينًا للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية في بدورها.

ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبَّرةً لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعًا صالحًا، أمينًا، مؤثِرًا للآخرة على الدنيا، متغلبًا على المادة، غير محكوم لها.

انتقل إليه صِدقُ التاجر وأمانته، وتعفُّف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي

وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم، وحراسة الخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثِرة للمبادئ على المنافع، والهداية على الجباية، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وُجِدت حياةٌ عامة، كلها إيمان وعمل صالح، وصدق وإخلاص، وجِدٌّ واجتهاد، وعدل في الأخذ والعطاء، وإنصاف النفس مع الغير[42]. انتهى.

قرب موقف الندوي من موقف البنا:

وأعتقد أنَّ موقف الإمام الندوي في هذا المجال شابه أو قارب - إلى حدٍّ كبير - موقف الإمام البنا، وإن ظن الكثيرون أن منهجي الإمامين في الإصلاح مختلفان. فمن قرأ تراث البنا بعمق، وجده يؤكد البدء بإصلاح الفرد، كما يؤكد أن صلاح الفرد يبدأ أول ما يبدأ بصلاح نفسه وزكاتها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9، 10].

وإنما تنجح الدعوات، وتنتصر الرسالات برجال زكَّوا أنفسهم حتى استعلت على الشهوات، وباعت الدنيا بالآخرة، وآثرت أن تعطي لا أن تأخذ، وأن تضحّي لا أن تغنم، فما أعظم الفرق بين جنديٍّ العقيدة، وجندي الغنيمة.

يقول الإمام البنا في رسالة: «إلى أي شيء ندعو الناس؟»:

«إن تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، ومناصرة المبادئ؛ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا، أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل، إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور: إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو

(42) نقلت كلمات الشيخ هذه المضيئة من قديم في كتابي: «الإيمان والحياة»، فصل: «الإيمان والإصلاح».

عليه من تلوّن ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ، وإيمان به، وتقدير له، يعصم من الخطأ فيه، والانحراف عنه، والمساومة عليه، والخديعة بغيره.

على هذه الأركان الأولية التي هي من خصوص النفوس وحدها، وعلى هذه القوة الروحية الهائلة تُبنى المبادئ، وتتربى الأمم الناهضة، وتتكون الشعوب الفتية، وتتجدد الحياة فيمن حُرِموا الحياة زمنًا طويلًا.

وكلُّ شعبٍ فَقَدَ هذه الصفات الأربعة، أو على الأقل فقدها قوّاده، ودعاة الإصلاح فيه، فهو شعب عابث مسكين، لا يصل إلى خير، ولا يحقق أملًا. وحسبه أن يعيش في جوٍّ من الأحلام والظنون والأوهام: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: 28].

هذا هو قانون اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وسنته في خلقه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب: 62].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: 11].

وهو أيضًا القانون الذي عبّر عنه النبي ﷺ في الحديث الشريف الذي رواه أبو داود: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**».

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟

قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن اللَّه من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**».

فقال قائل: يا رسول اللَّه، وما الوهن؟

قال: «**حب الدنيا، وكراهية الموت**».

أولست تراه ﷺ قد بيَّنَ أن سبب ضعف الأمم وذلة الشعوب وهن نفوسها، وضعف قلوبها، وخلاء أفئدتها من الأخلاق الفاضلة، وصفات الرجولة الصحيحة، وإن كثر عددها، وزادت خيراتها وثمراتها.

وإن الأمة إذا رتعت في النعيم، وأَنِسَتْ بالترف، وغرقت في أعراض المادة وافتُتِنت بزهرة الحياة الدنيا، ونَسِيَت احتمال الشدائد، ومقارعة الخطوب، والمجاهدة في سبيل الحق، فقل على عزتها وآمالها العفاء»[43].

هل خالف الشيخ الجماعة الإسلامية والإخوان في أهدافها؟

لم يخالف الشيخ الندوي الجماعات الكبرى المعروفة العاملة للإسلام في الساحة مثل: الجماعة الإسلامية في الهند وباكستان، أو الإخوان المسلمين في مصر ـ والعالم العربي، في أهدافها الكبرى، من استعادة مجد الإسلام، وعودة سيادة الشريعة الإسلامية على المجتمعات الإسلامية، وإحلالها محل القوانين الوضعية، ومطاردة الأفكار والمفاهيم والقيم والتقاليد الغربية، التي سادت كثيرًا من البلاد الإسلامية، لتقوم مكانها الأفكار والمفاهيم والقيم والتقاليد الإسلامية، فهو لا يتحفظ على إقامة الدولة الإسلامية والحكم الإسلامي، وبناء مجتمع إسلامي، واستئناف حياة إسلامية حقيقية متكاملة متوازنة، توجهها عقيدة الإسلام، وتسودها مفاهيمه، وتصبغها أخلاقياته، وتحكمها تشريعاته.

إنه يؤمن بهذه الأهداف، ورؤيته واضحة لها، وطالما كتب عنها، ابتداءً من كتابه: «ماذا خسر العالم؟» مرورًا بـ «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة

(43) «مجموعة رسائل الإمام الشهيد» (ص: 45، 46).

الغربية»، وانتهاءً بالرسائل الكثيرة التي خطَّها قلمه في هذا الموضوع.

فلا ينبغي أن يُحسب الشيخُ في زمرة الذين يرفضون السعي إلى الحكم الإسلامي، أو ينكرون العمل السياسي بالمرة ... فهذا ظلم بَيِّنٌ للشيخ، وإدراجٌ له مع الذين يقولون: لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة، وهو بالقطع بريء منهم.

تحفظ الشيخ على بعض مفاهيم الجماعة الإسلامية:

فكلُّ ما يقال هنا: إن للشيخ تحفظًا على عرض بعض المفاهيم، أو بعض الوسائل والمناهج التي يتخذها بعض العاملين للإسلام في الوصول إلى الحكم الإسلامي، أو السعي إلى إقامة الدولة الإسلامية، التي تمكّن لدين اللَّه في الأرض كما رأينا في كتابه: «التفسير السياسي للإسلامي».

ومن ذلك: التركيز على الحكم أو الدولة وكأنها هي الهدف الأوحد للدعوة، والمبالغة في تصوير هذا الجانب، وكأنه الإسلام كله، بحيث لو أخفق الدعاة في هذا الأمر، فكأنما أغلق باب الدعوة في وجوههم، وسد الطريق عليهم، فلم يبق لهم علم، ولم يعد لوجودهم من فائدة أو معنى.

نصيحة الشيخ للإخوان من قديم:

وهذا ما قاله الشيخ بصراحة للإخوان قديمًا، عندما التقى بقادتهم في زيارته الأولى والأخيرة لمصر سنة (1951م)، ولا بأس أن أنقل هنا شيئًا مما قاله في رسالته النابضة بالحيوية والحرارة والإخلاص: «أريد أن أتحدث إلى الإخوان» قال رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه:

«ليس خطب الدعوة الدينية والتجديد الإسلامي بهين أيها الإخوان الكرام،

فليست رسالتها ومهمتها قلب نظام فقط، أو تغيير وضع سياسي بوضع سياسي آخر، ونظام اقتصادي بنظام اقتصادي آخر، ولا نشر الثقافة والعلم، ومكافحة الأمية والجهل، أو محاربة البطالة والتعطل، أو معالجة عيوب اجتماعية أو خلقية، إلى غير ذلك مما يقوم له الدعاة والمصلحون في أوروبا وفي الشرق، وإنما هي دعوة الإسلام، التي تشمل العقيدة والأخلاق، والأعمال والسياسة، والعبادة والسلوك الفردي والجماعي، وتتناول العقل والقلب، والروح والجسم، وتعتمد على تغير عميق في القلب والنفسية، والعقيدة والعقلية، وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلم أو صحيفة كتاب أو منصة خطاب، تنفَّذُ على جسم الداعي وحياته قبل أن يطالِب بتنفيذها على المجتمع كله.

هذه الدعوة كانت جديرة في الحقيقة بالأنبياء ومواهبهم، وقواهم ورسالتهم، وإيمانهم وجهادهم، وثباتهم وفقههم، وحكمتهم وإخلاصهم.

كذلك، وهي دعوة كل عصر ومصر، وحاجة الإنسانية كلها، فلا بد أن تجدد في كل زمان وفي كل محيط، وتكون على أساس دعوتهم، مطابقة لسيرتهم، مقتبسة من مشكاتهم، فلنرجع إلى هذا المصدر، ولندرسه دراسة عميقة واسعة».

إلى أن يقول:

«امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجردها من التفكير في المنافع المادية، والثمرات العاجلة، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه اللَّه، وامتثال أوامره، وتأدية رسالته، تجردت عقولهم وأفكارهم من العمل للدنيا، ونيل الجاه، وكسب القوة لأسرتهم أو أتباعهم، والحصول على الحكومة، حتى لم يخطر ذلك ببال أصحابهم وأتباعهم، وكانت هذه الحكومة التي قامت لهم في وقتها، والقوة

التي حصلت لهم في دورها، لم تكن إلا جائزة من اللَّه، ووسيلة للوصول إلى أهداف الدين، وتنفيذ أحكامه، وتغيير المجتمع، وتوجيه الحياة، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: 41].

ولم تكن هذه الحكومة قط غاية من غاياتهم، أو هدفًا من أهدافهم، أو حديثًا من أحاديثهم، أو حلمًا من أحلامهم، إنما كانت نتيجة طبيعية للدعوة والجهاد، كالثمرة التي هي نتيجة طبعية لنمو الشجرة، وقوة إثمارها».

وقد قال كاتب هذه السطور في رسالته: «بين الجباية والهداية» ما يحسن نقله هنا:

«بعث اللَّه محمدًا ﷺ، فدعا الناس إلى الإسلام، فالتفَّ الناس حوله ﴿فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى 13 وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا 14 هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: 13 – 15]، هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة وظلم واضطهاد، وبلاء وعذاب، وقد قيل لهم من قبل: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ 2 وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: 2، 3]، فصمدوا لكل ما وقع لهم، وثبتوا كالجبال، و﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: 22]، حتى أذن اللَّه في الهجرة، ولم تزل الدعوة تشق طريقها، وتؤتي أكلها، حتى قضى اللَّه أن يحكم رجالها في العالم، ويقيموا القسط، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فقد عرف أنهم إذا تولوا وسادوا ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: 41].

وهكذا جاءت الدعوة بالحكمة، كما تأتي الأمطار بالخصب والزرع، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر، فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الإسلامية، ولم تكن هذه العزة والقوة إلا نتيجة ذلك العذاب الذي تحملوه من قريش وغيرهم، وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها.

وفرق كبير – أيها السادة – بين الغاية التي تُقصد، والنتيجة التي تظهر، ويظهر هذا الفرق في نفسية العامل والساعي، فالذي يقصد الحكومة يتوانى ويقعد إذا لم ينلها، أو انقطع أمله فيها، ويشتغل بها عن الدعوة، ويطغى إذا نالها، وخطر على كل جماعة تتكون عقليتها بحب الحكومة والسعي لها أن تقعد عن الجهاد في سبيل الدعوة، أو تنحرف وتزيغ في قصدها؛ لأن أساليب الوصول إلى الحكومة تخالف أساليب الدعوة.

فيجب علينا أن نتقي عقولنا ونفوسنا، ونجردها للدعوة ... وللدعوة فحسب، والخدمة، والتضحية، والإيثار، وإخراج الناس بإذن اللَّه من الظلمات إلى النور، ومن الجاهلية إلى الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان المحرفة، والنظم الجائرة، والمذاهب الغاشمة، إلى عدل الإسلام وظله، ولا يكون دافعنا إلى العمل والجهاد إلا امتثال أمر اللَّه، والفوز في الآخرة، وما أعدَّ اللَّه لعباده من الأجر والثواب، ثم الشفقة على الخلق، والرحمة بالإنسانية المعذبة، والحرص على نجاة الإنسان.

فإذا كان ذلك لا يمكن في مرحلة من مراحل الدعوة، أو في فترة من فترات التاريخ بعد تغلغل مبادئ الدعوة في نفوس الدعاة، ورسوخ العقيدة فيهم – إلا بالحكومة، سَعَيْنا لها لمصلحة الدعوة والدين، وبنفس العفة والنزاهة، والصدق والأمانة، والخشوع والتجرد، الذي نجتهد معه لواجبات الدين وأركانه،

والعبادات الأخرى، فلا فرق للمؤمن بين الحكومة وبين العبادات إذا حصل الإخلاص وصحّت النية، فكلٌّ في رضا اللَّه، وكلٌّ في سبيل اللَّه، وكلُّ عبادةٌ يتقرّب بها العبد إلى اللَّه». اهـ.

الشيخ والتغيير السياسي:

لم يكن الشيخ يركز على التغيير السياسي، وإنما يراه أثرًا للتغيير الإيماني والأخلاقي، بل رأيناه ينكر على العلّامة المودودي، وعلى الشهيد سيد قطب تركيزهما على هذا الجانب في فكرهما، وسمّى ذلك - في كتاب يتضمن نقد هذا الاتجاه بحرارة - : «التفسير السياسي للإسلام»، وخصوصًا ما كتبه المودودي في كتابه: «المصطلحات الأربعة في القرآن» ويعني بها مصطلحات: الرب، والإله، والدين، والعبادة، وقد تأثر الشهيد سيد قطب بكتابات المودودي في هذا المجال.

وقد غضب أتباع الشيخ المودودي من كتاب الشيخ الندوي، وردّوا عليه في مجلاتهم وصحفهم في مقالات سمّاها بعضهم: «التفسير الحقيقي للإسلام».

في حين رحّب الإمام المودودي بنقد صديقه وزميله القديم في الجماعة الإسلامية «الإمام الندوي» ولم يرَ في هذا النقد حرجًا ولا إثمًا. والقادة عادة يتسامحون ما لا يتسامح الأتباع والتلاميذ.

ولسنا في مقام الفصل بين الرجلين الكبيرين في هذا المقام، ولكننا نريد أن نبيّن اتجاه الندوي في الإصلاح، ونظريته في التغيير، وتركيزه على الجانب النفسي- والإيماني قبل كل شيء.

ولعل بقاء العلامة الندوي في الهند بأغلبيتها الوثنية المتحكمة، وفي بيئة إسلامية تعتبر أقلية في بلادها، وإن كانت كبيرة في ذاتها (150) مليونًا، وعدم قدرة

المسلمين على أن يكون لهم دولة تحكم بالإسلام في تلك البلاد - كان لـه تـأثيره في نظرة الشيخ إلى الإصلاح والتغيير، وإن كـان هـو يقـدّم ذلـك علاجًـا ومنهاجًـا للمسلمين في كل مكان، ولكنّ الإنسان لا يمكنه أن ينفصل عن مكانه وزمانه.

وأود أن أوضح هنا أن تركيز الشيخ الندوي على الإيمان باعتبـاره أسـاس كـل تغيير وإصلاح، إنما يعني الإيمان بمفهومه الإسلامي الرحب العميق، فليس الإيمان في الإسلام مجرد شعور وجداني، كما في أديان أخـرى، إنـما يتمثـل الإيـمان في كـل جوانب النفس الإنسانية من العقل والوجدان والإرادة، أو ما يعبِّـر عنـه بعضـهم بالتفكير والانفعال والنزوع.

الجانب الفكري في منهج الشيخ:

ومعنى هذا: أن الجانب الفكري له حظ في الإصلاح عند الشـيخ، ولهـذا عُنِـيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتبه ورسـائله ومحاضراتـه بتصـحيح المفـاهيم المغلوطـة عـن الإسـلام ورسالته وحضارته، ومقاومة الأفكار الضالة التـي تنحـرف بأمتـه عـن وجهتهـا وغايتها، أو عن الصراط المستقيم. وبهذا تتطهر من الجاهلية بكل أوضارها العقلية والنفسية، وتحرر من الطاغوت أيًّا كان اسمه وعنوانه.

فلقد رأينا القرآن الكريم يهتم بالدعوة إلى اجتناب الطاغوت اهتمامه بالدعوة إلى توحيد اللَّه تعالى، كما قال في كتابه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَـا فِي كُلِّ أُمَّـةٍ رَّسُـولًا أَنِ ٱعْبُـدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: 17].

وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَـدِ ٱسْتَمْسَـكَ بِـٱلْعُرْوَةِ ٱلْـوُثْقَىٰ لَا

ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: 256].

فقدَّم الكفر بالطاغوت على الإيمان باللَّه، كما تُقدَّمُ التخلية على التحلية، وكما تُقدم إزالة الأنقاض على تأسيس البنيان.

ولا عجب أن رأينا الشيخ يكتب كتابه عن «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية».

كما رأيناه يحذِّر من دعوة الأحمدية القاديانية، التي اعتبرها ثورةً على النبوة المحمدية والإسلام.

وكذلك وقف في وجه الدعوات القومية المتطرفة التي تعمل على تمزيق الأمة الإسلامية، وتحويلها إلى قوميات تتنافر، ويجافي بعضها بعضًا، بل يقاتل بعضها بعضًا، مبينًا أن الأمة الإسلامية فوق العصبيات العرقية واللونية وغيرها، وأنها أمة واحدة.

ولهذا وقف بشدة ضد تيار القومية العربية المتطرف، الذي كان يعتبرها بعضهم نبوة جديدة في مقابل نبوة محمد ﷺ.

ولهذا كانت فكرته الإصلاحية موجَّهة إلى الأمة كلها، بكل عناصرها وقومياتها، وبكل ألسنتها ولغاتها، وفي كل أوطانها وأقاليمها، وطالما وجّه رسائله ومحاضراته إليها، مثل: «مسئولية الأمة المسلمة»، «قيمة الأمة المسلمة، ورسالتها في العالم»، «المسلمون على مفترق الطرق» وهذا توجُّهٌ قديم عند الشيخ، منذ كتب رسالة: «إلى ممثلي البلاد الإسلامية» وهو شابٌّ في مقتبل العمر.

ولكن - والحق يقال - يرى الشيخ أن «العرب» خاصة، عليهم تبعة أعظم، ومسئولية أكبر من سائر الشعوب الإسلامية، لأنهم عصبة الإسلام، وأهل الرسول

العظيم ﷺ، وبلغتهم نزل القرآن الكريم، ومن أرضهم انطلقت دعوة الإسلام، وفيها كانت المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى. ومن العرب كان الصحابة الأولون، الذين حملوا رسالة الإسلام إلى العالم، وأخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وقد وجدنا هذا من قديمٍ فيما كتبه الشيخ من رسائل بليغة، فوّاحة بعطر الأدب، حية بنبض الإيمان، في صورة حوار بديع بين «العالم وجزيرة العرب».

كما تأكد ذلك بالرسائل التي وجهها إلى عدد من البلاد العربية، يُسمِعُها فيه كلمته، ويبلغها نصيحته، تحت عنوان: «اسمعي يا مصر»، «اسمعي يا سوريا»، «اسمعي يا زهرة الصحراء» يعني الكويت. ثم أخيرًا «اسمعوها مني صريحة أيها العرب» التي قال فيها كلمته الشهيرة:

«لو جُمِعَ لي العرب في صعيد واحد، واستطعت أن أوجه إليهم خطابًا تسمعه آذانهم، وتعيه قلوبهم، لقلت لهم: أيها السادة! إن الإسلام الذي جاء به سيدنا محمد العربي ﷺ هو منبع حياتكم، ومن أفقه طلع صبحكم الصادق، وأن النبي ﷺ هو مصدر شرفكم، وسبب ذكركم، وكل خير جاءكم - بل وكل خير جاء العالم - فإنما هو عن طريقه، وعلى يديه، أبى اللَّه أن تتشرفوا إلا بانتسابكم إليه، وتمسككم بأذياله، والاضطلاع برسالته، والاستماتة في سبيل دينه، ولا رادَّ لقضاء اللَّه، ولا تبديل لكلمات اللَّه. إن العالم العربيَّ بحرٌ بلا ماءٍ كبحر العروض، حتى يتخذ سيدنا محمدًا ﷺ إمامًا وقائدًا لحياته وجهاده، وينهض برسالة الإسلام كما نهض في العهد الأول، ويخلص العالم المظلوم من براثن مجانين أوروبا، الذين يأبون إلا أن يقبروا المدنية، ويقضوا على الإنسانية القضاء الأخير بأنانيتهم واستكبارهم وجهلهم، ويوجه العالم من الانهيار إلى الازدهار، ومن الخراب والدمار، والفوضى

والاضطراب، إلى التقدم والانتظام، والأمن والسلام، ومن الكفر والطغيان، إلى الطاعة والإيمان، وإنه حقٌّ على العالم العربي سوف يُسأَل عنه عند ربه فلينظر بماذا يجيب؟!».

رأي الشيخ في التغيير عن طريق تكوين الجماعات:

وأحب أن أقف هنا وقفة لنعرف موقف الشيخ من التغيير والإصلاح الإسلامي عن طريق تكوين جماعة أو هيئة إسلامية منظمة، تقوم بعمل جماعي، يُعدُّ العدة للتغيير عن طريق الكفاح الفكري والاجتماعي والسياسي والتعليمي أيضًا.

وذلك مثل ما فعله في الهند الكبرى - قبل تقسيمها - العلامة أبو الأعلى المودودي في إنشائه لجماعته المعروفة التي سمَّاها: «الجماعة الإسلامية» والتي أصبح لها وجودها وفاعليتها الآن بعد التقسيم: في الهند وفي باكستان، وفي بنجلادش، وفي بلاد الغرب وغيرها.

وكذلك جماعة «الإخوان المسلمين» التي أسسها الإمام الشهيد حسن البنا في مصر، وامتدت بعد ذلك في العالم العربي والإسلامي، وأصبح لها وجود الآن في نحو سبعين دولة في العالم.

وأعتقد أن الشيخ لا يعترض على تكوين هذه الجماعة ولا تلك، وقد كان في وقت من الأوقات واحدًا من أعضاء الجماعة الإسلامية، وكان له فيها مكان ومكانة، وكان قريبًا من الأستاذ المودودي، ولكنه تركها واستقال منها لأسباب، قد نعرض لها في موضعها إذا يسر اللَّه.

كما أن الشيخ قد نوَّه بجماعة الإخوان المسلمين، وكتب عن إمامها ومؤسسها

الشيخ البنا، وجلس مع قادتها، وقدم لهم نصائحه.

كما أن الشيخ قد أيد «جماعة الدعوة والتبليغ» بل انضم إليها، وغدا واحدًا من رجالها، وأثنى على مؤسسها الأول وخليفته.

ومن هنا نقول: إن الشيخ الندوي لم يعترض مبدئيًا على منهج «الجماعة الإسلامية» التي أسسها الأستاذ المودودي في التغيير والإصلاح، وإن كان له ملاحظات على بعض كتاباتها، وتركيزها على الجانب السياسي، وسنعرض لهذا في مقام آخر.

ولم يعترض الشيخ الندوي على منهج «جماعة الإخوان المسلمين» التي أسسها الشيخ حسن البنا، وإن نصح لقادتها من قديم، حين لقيهم في زيارته لمصر ـ سنة (1951م)، وكتب رسالته الشهيرة: «أريد أن أتحدث إلى الإخوان».

لم يعترض العلامة الندوي على «الجماعة الإسلامية» ولا على «الإخوان»، ولكن يظهر لمن درس كتب الشيخ وتدبرها: أنه لا يرى التغيير والإصلاح على طريقة الإخوان والجماعة أمرًا ضروريًا، ولم يقل ما قلناه وقاله غيرنا من أن هذا الطريق في الدعوة والإصلاح: فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها المجتمع.

عرض الشيخ الندوي لمنهج أفضل في الإصلاح كما يراه:

بل ذهب الشيخ صراحة إلى أن هناك طريقًا أفضل، ومنهجًا أصلح وأمثل، لتحقيق الإصلاح، وأنه أقرب وأيسر من ذلك الطريق الذي أوله أشواك تدمي، وآخره أشواك أكثر إدماءً وجرحًا.

فصّل هذا الطريق في رسالته القديمة المركزة: «منهج أفضل للإصلاح

والتجديد» حيث يقول:

«واتفق أن أكبر ملك عرفه تاريخ الهند، هو الملك المغولي السلطان «جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر» مؤسس الحكومة المغولية في الهند، اتجه اتجاهًا معارِضًا للإسلام، ونشأ فيه عداء للإسلام، وعناد شديد للدين الإسلامي، وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، وعطف شديد على البراهمة وعقائدهم وعاداتهم.

هذه مرحلة أدق من مرحلة الجاهلية المحضة، إذا كانت بلاد لا تعرف الإسلام، فقضيتها قضية سهلة، إذا تعرّفت بالإسلام فقد تعرّفت بالإسلام الحقيقي والدين الخالص، ولكن إذا ثار الملوك والحكام على الإسلام، وانحرفوا عن الجادة وارتدوا عن الإسلام أو عارضوه، فهنا العقدة الكبرى.

إن «أكبر» كان أولًا مغرمًا بدراسة الديانات، وكان من سوء حظه أنه كان أميًّا أو شبه أمي، لم تسمح حياته الخاصة بدراسة وثقافة – ولكن مع ذلك عنده غرام بالمقارنة بين الديانات – والإنسان إذا كان جاهلًا، وليست عنده الوسائل الكافية للمقارنة الأمينة، والوصول إلى النتائج الصحيحة، فهذه محنة عظيمة، وهذا الرجل الذي كان يجمع بين طبيعتين متناقضتين، جاهلٌ، ولكنّه كان مفرط الذكاء، سريع الانفعال عصبيًّا، ومغرمًا بالمقارنة بين الديانات، فجمع علماء أهل السنة وعلماء الشيعة وعلماء الطوائف الإسلامية التي انحرفت عن الإسلام، وعلماء البراهمة والبوذيين والمجوس والمسيحيين، وكان يثير موضوعًا خلافيًّا يناظر فيه هؤلاء العلماء، فكانوا يتناقرون كالدِّيَكة، ويتناطحون كالتيوس، وكان يتفرّج على ذلك ويتسلّى به، كما كان الملوك في العصر القديم يتفرجون على قتال التيوس وبعض الطيور، هذا المناظرات قد غرست في قلبه الشكوك، وصار ينسلخ عن الإسلام رويدًا رويدًا حتى انسلخ تمامًا.

ثم العامل الثاني الذي أثر فيه، وعدل به عن الإسلام هو: حب العلماء الزائد للدنيا، وتنافسهم في الجاه والمال، كان في بلاطه علماء يُعتبرون من كبار العلماء في عصره، ولكنّهم مع الأسف الشديد، كانوا متنافسين تنافسًا شديدًا في الجاه، وكان كل واحد يريد أن يستأثر بالْمَلِك، وكان بعضهم ادخر مالًا عظيمًا، وكان بعضهم استخرجت من مقبرة أسلافه لبنات من ذهب كان قد خبّأها، فلما اطّلع هذا الرجل على هذه المناظرات، واطلع على مواضع الضعف في هؤلاء العلماء الكبار، الذين كان أحدهم المحدّث الأكبر قاضي القضاة والمفتي الأكبر، رأى أنهم لصوص الدنيا، وأنهم لا يقلون عن عبّاد الدنيا في حب المال، فانسلخ من الإسلام.

وأقول لكم - أيها الإخوان - عن تجربة واختبار، إن الذي يرتد عن الإسلام يكون أكثر عنادًا للإسلام، وأكثر معارضة للإسلام والمسلمين من الذين ليس لهم عهد بالإسلام، ومن أتباع كل ديانة، مسيحيين كانوا أو يهودًا، وهذا الذي تشهدونه اليوم في بعض البلاد العربية والإسلامية، التي يحكمها الذين ولدوا في الإسلام ونشأوا في بيت مسلم، وفي بيئة مسلمة، ثم كرهوا الإسلام وأبغضوه لتأثير أجنبي، أو بفعل ثقافة أو فلسفة، فهم دائمًا أشد عنادًا للإسلام من الهندوس والمجوس والمسيحيين.

ونعود إلى القصة فنقول: إن «أكبر» عادى الإسلام عداءً شديدًا، حتى يروى عنه أنه كان لا يستطيع أن يسمع اسم محمد ﷺ، كانت تثور ثائرته إذا سمع هذا الاسم الكريم، فكان لا يملك نفسه، وقد أصدر الأوامر الشديدة بأن كل من سُجِّل عليه أنه ذبح بقرة فإنه يُقتل.

إنه أحلّ الخنزير، وأحل الخمر، ولكنه حرّم ذبح البقر، وحرَّم على رجال بلاطه أن يسمّوا أولادهم محمدًا أو أحمد.

هذه فترة دقيقة جدًّا، تقرر مصير الهند، تقرر مصير المسلمين في هذه البلاد التي فتحوها بدمائهم، هذه البلاد التي هجروا فيها وفي سبيلها أوطانهم، هذه البلاد التي عاشت فيها أجيال، هل يتجرد المسلمون فيها عن دينهم؟ هل يلفظ الإسلام نفَسَهُ الأخير؟ هل يُكتب له الفناء؟

هنالك قام رجل له فضل على كل مسلم في الهند، هو الشيخ «أحمد بن عبد الأحد العمري السرهندي» رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وكان عالمًا كبيرًا مشاركًا في علوم كثيرة، وكان إذا أراد أن يكون له مركز كبير علمي كان يمكن أن يتصدر مجلس السلطان «أكبر»، وكان هناك مَن دونه في العلم، ومَن دونه في الذكاء، ولكنّه ملكته فكرة واحدة: حرامٌ على هذه البلاد أن ترتد عن الإسلام، وأن يُحْرَمَ المسلمون فيها حقهم، وألا يعيشوا كرامًا أحرارًا شرفاء، يزاولون شعائرهم الدينية، ويحافظون على خصائصهم وشخصيتهم الإسلامية، ملكته هذه الفكرة حتى حالت بينه وبين كل لذة، فوهب نفسه وحياته لها، ترونه في رسائله، وأصلها بالفارسية، وقد نُقِلَتْ إلى العربية، كيف يبكي دمًا؟ وكيف يبكي على الإسلام؟ إن رسائله دافقة بالحياة، الإنسان إذا قرأ هذه الرسائل يشعر بأن فيها شعلة إيمانية، ولهيبًا من إيمان وصراحة وحزن، فيقول في إحدى رسائله التي كتبها إلى أحد كبار الدولة: «وا ويلاه، وا حزناه، وا مصيبتاه، إن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، الذي هو حبيب رب العالمين بهذا الذل والهوان، والكفار والمشركون والوثنيون يتمتعون بالحرية، وهذا في عهد رجلٍ يتسمّى بالإسلام».

إنه ينعزل عن مركز الحكم، يجلس بعيدًا، ولكنه لم يزل متصلًا برجال البلاط والأمراء، يكتب إليهم الرسائل البليغة التي تسيل عذوبة، وتشتعل نارًا في وقتٍ واحدٍ، والتي تعتبر من أقوى الرسائل الدعوية والإصلاحية في المكتبة الإسلامية،

وإنه لم يزل يثير غيرتهم الإيمانية، ويلهب فيهم جمرة الإيمان، التي كانت مدفونة تحت الرماد، فيزيل عنها التراب، فيقول للواحد منهم: «أنت مسلم، والحياة عارضة، والملك لا يعيش دائمًا، وهذا الحكم لا يدوم، اتق اللَّه في نفسك، اتق اللَّه في أمتك، اتق اللَّه في بلادك».

هذا كان دأبه على مرِّ الأيام حتى استطاع أن يجر إليه عددًا كبيرًا من الأمراء والوزراء، وكانت سياسة البلاد تمر بمرحلة دقيقة جدًّا؛ لأنه إذا ثار ضد هذا الملك الجبار، الملك الذي ارتد عن الإسلام، وقد سمعنا قصة ارتداده وثورته على الإسلام، فإن معنى ذلك أن هذه البلاد ستذهب إلى الهنادك، فيستولون عليها، لأنهم بالمرصاد، فلم يوافق على أن يعارض الحكومة بالسيف؛ لأن هذه الحكومة إذا ضعفت فمعنى ذلك أن الهنادك يستولون عليها، وأنهم سيخلفون المسلمين، فكان من الاحتياط ومن الحكمة وكان من السياسة، ألا تضعف شوكة المسلمين الهادية والعسكرية، فاقتصر على الدعوة، واقتصر على الرفق وعلى الحكمة.

فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه خليفته «نور الدين جهانكير»، كان أحسن سيرة، وأسلم عقيدة من أبيه الراحل، ولم يزل الشيخ مذكرًا له، وناصحًا ومشجعًا، يرشده ويوجهه ويراسله، وقد طلب مرة من أمرائه أن يرشّح له عددًا من العلماء يذاكرهم في الأمور الدينية، فلما علم الشيخ بذلك قال: لا. إن العلماء إذا اجتمعوا فإنهم يتنافسون ويناظرون، فهذا يفسِدُ الْمَلِكَ، وهذا الذي حدث في العهد السابق وأضرَّ بالإسلام. رجل زاهد في الدنيا، متعمق في الدين، راسخ في العلم أفضل من أن يختاروا عددًا من العلماء، وهم يتصارعون ويتناظرون، ويظهرون براعتهم، وحِذْقَهم، وهذا لا أراه لك رأيًا، وكان كما قال.

ولم يزل «نور الدين جهانكير» يتدرج من صالح إلى أصلح، ومن حسن إلى

أحسن، حتى محا كثيرًا من آثار أبيه السيئة، وأزال كثيرًا من بدعه ومحاربته للإسلام.

ثم خلفه «شاه جهان» وهو الملك المسلم الخاشع للّه، وهو الـذي لـما تربّـع عـلى عرش الطاووس، الذي أنفق عليه الملايين نـزل وخـرَّ للّه سـاجدًا يثبـت عبوديتـه وإسلامه، ويحمد اللّه على الْمُلك الذي آتاه، ولم يزل الشيخ والحبل في يده فيقبضـه ويرخيه، إذا رأى من المصلحة أن يرخيه أرخاه، وإذا رأى مـن المصـلحة أن يجـره جره.

وخلف الشيخ أحمد ابنه النجيب المتم لعلمه، والأمين على دعوته الشيخ محمـد معصوم بن أحمد، وله فضل كبير في تربية السلطان «عالم كير أورنك زيب بن شـاه جهان»، الذي يُعد من أكبر ملوك المسـلمين، لـيس في الهنـد فقـط، بـل في تـاريخ الإسلام، يعني بعـد «نـور الـدين» و«صـلاح الـدين» وبعـض ملـوك المسـلمين الصالحين، هو الذي دوّن «الفتاوى الهندية» وجعلها قانونًا للدولة، وهو الذي طبق الأحكام الشرعية بدقة وعنايـة، وحفـظ القـرآن الكـريم، وجمـع أربعـين حـديثًا وشرحها، وله عوائد والتزامات، لا يقدِر عليها كثير من العلماء والعبّاد، فضلًا عن الملوك والسلاطين، هذا الرجل قلبَ تيار الحياة، وأرسخ قواعـد الإسـلام في هـذه البلاد، وربط مصـيرها بالمسـلمين وبـالعلم والـدين، وأزال خطـر زوال الإسـلام وجلاء المسلمين، كما وقع في إسبانيا قبل قرنين، وهذه ناحية جهـاد الشـيخ أحمـد وتجديده الأولى.

أما الناحية الثانية: فإنه عارض البـدع والعقائـد الشرـكية والشـعائر الجاهليـة المجوسية، والفلسفة اليونانية أشد المعارضة، وهو الذي شـن الحـرب عـلى فكـرة «وحدة الوجود» التي كان لها سحر عجيب على العقول والنفوس، ونفوذ عميق في العلوم والآداب، وكوّن معسكرًا كبيرًا لـه قيمتـه وأهميتـه إزاء معسـكر «وحـدة

الوجود» الذي كاد يكون المعسكر الوحيد في الهند وفي البلاد العجمية، فعارض هذه الفكرة معارضة شديدة وحاربها حربًا شعواء، لا هوادة فيها ولا رفق، وأنا أقرأ لكم طرفًا من إحدى رسائله الخالدة على سبيل المثال:

كتب إليه أحد تلاميذه أن الشيخ «عبد الكريم الجيلي اليمني» يعتقد أنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات، وهي من ضِمْن الأفكار والعقائد التي تسرّبت في المسلمين عن طريق الفلسفة اليونانية، فكتب إليه يقول: «يا أخي! إني لا أستطيع أن أصبر على سماع هذه الخرافات، وإن عِرقي العمريَّ ينبض، وإن الدم الفاروقي الذي يجري فيه يفور[44]، كائن قائل هذا عبد الكريم الجيلي اليمني أو الشيخ ابن عربي الطائي، إنَّ الفتوحات المدنية[45] أغنتنا عن «الفتوحات المكية»[46]، نحن نريد «محمدًا العربي» لا الشيخ ابن عربي، إننا من أتباع النصوص[47] لا «الفصوص»[48].

وهذا مثال من الأمثلة الكثيرة، وهكذا استطاع أن يعيد إلى الإسلام مركزه من جديد في الهند، ويعيد إلى السنة اعتبارها، ويعيد في المسلمين الثقة بالمصادر الصحيحة وبالكتاب والسنة.

تبدو من هذا النقل المطول: حقيقة المنهج الذي ارتضاه الشيخ، وقدّمه للدعاة والعلماء، ليعملوا وفقه، ويسيروا في ضوئه، لإصلاح الأوضاع الفاسدة، وتغيير

---

(44) الشيخ أحمد ينتهي نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(45) يعني: التعليمات النبوية والأحاديث الصحيحة.

(46) كتاب مشهور للشيخ ابن عربي.

(47) يعني: نصوص الكتاب والسنة.

(48) يشير إلى «فصوص الحكم» للشيخ ابن عربي، وهو يتضمن الشيء الكثير من مثل هذه الأقوال الغريبة.

المناهج الكاسدة، وتقويم المسالك المعوجّة في الحياة الإسلامية.

ويتلخص هذا المنهج في التركيز على أشخاص الحاكمين لإصلاح الأمة عن طريق إصلاحهم، على أساس أن الناس تبع لملوكهم، وأنهم إذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس. وقد جاء في «صحيح البخاري» أن النبي ﷺ سُئل عن الساعة، فقال: «**إذا ضُيِّعتِ الأمانة فانتظر الساعة**»، ثم فسّرها فقال: «**إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة**»، مما يدلنا على أهمية «أولي الأمر» في الأمة، وأن الأمة تصلح بصلاحهم.

ولهذا قال الحسن وغيرُه من علماء السلف: لو كانت لي دعوة مستجابة، لدعوتها للسلطان، فإن اللَّه تعالى يُصلِحُ بصلاحه خلقًا كثيرًا[49].

تعقيب على ما عرضه الشيخ من منهج:

وأود هنا أن أعقب على شيخنا الندوي فيما عرضه على الدعاة والعلماء من منهج يراه أفضل وأوثق وأنجع في الإصلاح والتغيير، برغم ما أومن به من صدق الشيخ وإخلاصه وبصيرته، رضي الله عنه.

ولكن يظهر للمتأمل أنَّ هذا المنهج أقرب إلى المثالية منه إلى الواقعية، إلى حدٍّ بعيدٍ[50].

فهو - أولًا - يفترض أن الشعوب والمجتمعات يحكمها ملوك يوجهونها كما يريدون، وأننا نستطيع أن نركز على مَن سيتولون الحكم بعد الملوك المنحرفين

---

(49) على أن تكون هذه الدعوة بين الداعي وربّه في السَّحَر أو وهو ساجد حيث يكون أقرب إلى اللَّه تعالى، أما الدعاء على المنابر فهذا ليس دعاءً بل دعاية.

(50) فليس نجاح هذا المنهج في عصر دليلًا على إمكان نجاحه في كل عصر.

والفاسدين، فنضع خطتنا لتقويمه وإصلاحه، ودفعه إلى الخير، فإذ وُلِّيَ غيّرَ الفساد إلى صلاح، والمنكر إلى معروف، والظلم إلى عدل، والشرَّ إلى خير.

ونسي الشيخ أن معظم الشعوب اليوم يملكها رؤساء جمهوريات، يتغيرون ويأتي غيرهم، فيرثهم، ويسكن الأرض من بعدهم.

وحتى في الأنظمة الوراثية لا يؤمن أن يتغير الوارثون لسبب أو لآخر، كم رأينا بعض الممالك، وفيها ولي عهد ظل نحو أربعين سنة، ثم تغيرت الظروف فجأة، ونُحِّيَ الرجل، وجيء بغيره، وخرج من «الْمُولِد بلا حُمُّص» كما يقول المثل المصري.

وهو – ثانيًا – يعتمد على أن الفساد كله منوط برأس الحكم، فإذا أصلحناه، فقد أصلحنا المجتمع كله، وأصلحنا الحياة بعد ذلك.

ولكنَّ الواقع علمنا أن الفساد اليوم ليس في مجرد أنفس الحكام وعقولهم. إنَّ الفساد قد تغلغل عند الكثيرين، ولا سيما بين النُّخب المثقفة، التي سُقيت من الغزو الفكري ما سُقيت، وأصبحت هي المعارض الأول والحقيقي لتبني أحكام الشريعة. فلم يعد هناك معنى للتركيز على شخص الملك أو رئيس الجمهورية.

إن المعركة إذن ليست مع شخص الملك أو الرئيس، إنما هي في الحقيقة مع هذه النخب التي غذتها الثقافة الغربية، ورضعت لبانها، وأمست أسيرة فكرها ومفاهيمها، وهؤلاء الذين سميتهم عبيد الفكر الغربي هم الذين يقودون سفينة الأمة، ويؤثرون في حياتها الفكرية والشعورية والسلوكية. والعمل مع هؤلاء لا يكفي فيه فرد واحد، بل لا بد من إنشاء تيارٍ فكريٍّ مقابل، يحتضنه ويقوم عليه رجال صادقون مستنيرون، يقاومون الفكر بالفكر، والحجة بالحجة؛ وهذا هو

الجهاد الكبير الذي أمر الله به رسوله ﷺ في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ (أي: القرآن) جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52].

وهو – ثالثًا – يعتمد على وجود عالم رباني قادر على التأثير في نفوس الملوك وأمثالهم، تلين له القلوب، كما لان لداود الحديد، وتذرف الأعين الدموع إذا استمعت إليه الآذان مثل الإمام السرهندي. وهل نضمن وجود هذا النوع دائمًا، وهو هبة من الله تعالى، يمنحها لعباده في بعض الأوقات، ولبعض المجتمعات؟ وهل نضمن إن وجد أن يتهيأ له السبيل للقرب من الحكام والتأثير فيهم؟

وهو – رابعًا – يفترض أن تؤثر كلمات هذا العالم وتوجيهاته في قلب هذا الحاكم أو المرشح لأن يكون حاكمًا، وأن ينفتح قلبه للموعظة، ويتأثر بها، ويغير من حاله وأفعاله وفقًا لها.

ومن أين لنا أن ينتصح هذا الفرد المأمول، ويستجيب لما يحثه عليه العالم الرباني، ويتجاوب معه، ويغير من حاله إلى حال أخرى، يحبها الله ويرضاها؟ فكثيرًا ما ينصح العالم، ومستمعوه لا يستجيبون، قائلين ما قاله المشركون قديمًا للرسول الكريم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: 5].

فهل يقول الشيخ هنا ما قاله أحد الدعاة في القرن العشرين: إما أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين، وإما أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين؟

أو أنَّ الشيخ يرى أنَّ طريق التغيير واحد لا شريك له، ولا بديل له، وهو إما أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين، أو ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين! أي هو طريق واحد، لا طريق غيره.

ماذا يقول الشيخ في هذه الحال؟ أيصرُّ على موقفه، ويطلب منا أن نصبر وننتظر، حتى يأتي اللَّه بفرج من عنده، بميلاد صبيٍّ يناسب السن المفترضة، وتهيئة عالم رباني يتعهده ويؤثر في تفكيره وسلوكه، أم يقول بضرورة «العمل الجماعي» المنظم، الذي يقوده علماء ودعاة ربانيون، يدعون إلى اللَّه على بصيرة، ويعملون للتغيير والإصلاح، وفق قانون الأسباب والمسببات، يبذرون الحب، ويرجون الثمر من الرب، ويدعون الناس، ويكلون هدايتهم إلى اللَّه مقلّب القلوب ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 272].

أغلب الظن أن الشيخ رضي الله عنه سيوافق في النهاية على محاولة الإصلاح والتغيير بما يتيسر من الطرق، مع التذكير على ضرورة التربية الإيمانية والأخلاقية، ولا سيما للقادة والطلائع الذين يقودون الركب، ويتأسى بهم من دونهم، وهذا ما لا نخالفه فيه، ولا يخالفه فيه داعية بصير.

***

الباب الرابع
أبو الحسن النَّدوي
سفير العجم لدى العرب

- **الاعتبارات التي رفعت قدر الشيخ لدى العرب.**
- **اختياره للمجامع والمجالس العلمية والدعوية.**
- **بداية اتصاله بالعالم العربي.**

- دعوته إلى المؤتمرات والندوات والمحاضرات.
- مهرجان ندوة العلماء في «لكهنو».

* * *

الباب الرابع

أبو الحسن الندوي

سفير العجم لدى العرب

الشيخ الإمام أبو الحسن علي الحسني الندوي: شخصية ثرية متعددة المواهب، متنوعة العطاء، فهو إمام من أئمة الدعوة، وعلم من أعلام الإصلاح، ونجم من نجوم الهداية، وجبل من جبال العلم، ورائد من رواد الربانية، وقائد من قادة الإسلام.

كان الشيخ أحد الرجال الربانيين، الذين يدلك على اللَّه منطقهم، ويذكرك بالآخرة سلوكهم، ويزهّدك في الدنيا حالهم، ولقد قالت العرب: لسان الحال أبلغ من لسان المقال.

وقال علماء السلوك: حال رجل في ألف رجل أبلغ تأثيرًا من مقال ألف رجل في رجل.

ولقد قال السلف: الرباني هو الذي يَعْلَمُ ويعمل ويعلِّم. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

كان من معلمي الناس الخير الذي تصلي عليهم الملائكة في السماوات، وتصلي عليهم مخلوقات اللَّه في الأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، كما ورد في الحديث.

كان - كما قال الإمام أحمد عن الإمام الشافعي - كالشمس للدنيا، والعافية

للناس.

إنه من القلائل الذين يجود بهم اللَّه على الناس ما بين فترة وأخرى، لطفًا منه بهم، ورحمة منه لهم، ليحيوا ما مات من القلوب، ويجددوا ما اندرس من الدين.

وهو من الخلف العدول الذين حملوا عِلم النبوة، وميراث الرسالة المحمدية، ليبلغوه للأجيال، ولينفوا عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، كما روي في بعض الأحاديث.

وهو - لا ريب - من أعلام الطائفة المنصورة التي صَحّتْ بها الأحاديث، واستفاضت عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم: أنْ «**لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة بالحق، ظاهرة عليه، حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك**».

وهو بلا شك من الأمة التي نوه بها القرآن، وأثنى عليها في قوله ﷻ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181].

وممن قال فيهم سيدنا علي كرّم اللَّه وجهه: «لا تخلو الأرض من قائم للَّه بالحجة».

ويستطيع ذوو الأقلام أن يجدوا أكثر من مجال للكتابة عن الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله.

وقد كتبتُ عن الشيخ الجليل عندما قامت «رابطة الأدب الإسلامي» - التي تتشرف برئاسته - بعقد ندوة خاصة لتكريمه، والتي كانت في مدينة إستانبول منذ عدة سنوات، ودُعي إليها عددٌ من رجال الأدب والفكر من العالم العربي والإسلامي ليشاركوا في تكريم الشيخ رحمة اللَّه عليه.

ولقد كانت هذه فرصة لأكتب عن فقه الدعوة، وعن ركائز الفكر الدعوي للشيخ أبي الحسن الندوي[51]، ولقد حصرتها في عشرين ركيزة، أحصيتُها، وتحدّثت عن كل منها بإجمال. وتحدثت بتفصيل عن إحداها فقط، وهي ركيزة: «إعلاء الوحي على العقل».

كما كتبت عن الشيخ بمناسبة محاضرته التي ألقاها في دولة قطر بدعوة من وزارة الأوقاف فيها، والتي تحدث فيها الشيخ عن «مهمة الأمة الإسلامية في العالم»، ونشرت كلمتي مع محاضرته، وكذلك كتبت عن الشيخ كلمة رثاء عند وفاته رضي الله عنه، وفاءً ببعض حقه.

واليوم أراد الإخوة في «مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية» بإنكلترا، والذي يرأس الشيخ مجلس أمنائه منذ تأسيسه، وسعدت بعضويتي فيه، فقد كان فرصة للقائه بين الحين والحين، لأرطب جفاف قلبي بفيض ربانيته، ودفق روحانيته، أرادوا أن يقيموا ندوة تأبينية للشيخ رحمه الله، واختاروا لي أن أتحدث عن صلة الشيخ بالعالم العربي، وإنها لصلة وثيقة وعميقة جديرة بالتنويه.

موقع الشيخ لدى العالم العربي:

كان الإمام أبو الحسن علي الحسني الندوي – رحمة الله عليه – سفير الشعب المسلم بالهند، بل سفير الشعوب المسلمة في بلاد العجم كلها لدى البلاد العربية، علمائها ودعاتها ومفكريها المسلمين، ومجامعها العلمية والدعوية الإسلامية، ومؤسساتها الثقافية والدينية.

---

(51) وهي الباب الثاني من هذا الكتاب.

الاعتبارات التي رفعت قَدْر الشيخ لدى العرب:

وقد أجمع العلماء، واتفقت المجامع والمؤسسات والمجالس العلمية والدعوية المختلفة على اعتماد سفارة الشيخ أبي الحسن، وتمثيله لمسلمي الهند خاصة، والعجم عامة، وذلك لاعتبارات مهمة، نجملها فيما يلي:

أولًا – أرومته العربية: ونسبه الحسني الشريف، فلا شك أنه عربي قرشي هاشمي حسني، وإن نشأ في الهند وعاش فيها، كما عاشت فيه أسرته الحسنية الشريفة منذ قرون. وهذا ولا شك قربه إلى العرب، فهو في الحقيقة واحد منهم.

ثانيًا – رسوخه في العربية: وتشبّعُه بعلومها وأدبها منذ صباه، وقراءته لكتبها، واطلاعه على مصادرها، وحفظه الكثير من شعرها ونثرها، واستحضاره لها، وحس استشهاده بها. كأنما نشأ في أرض العرب، وتعلم في معاهدها، فكان يخطب ويحاضر بالعربية الفصحي، ويكتب بها مؤلفاته، من كتب ورسائل، فهو يكتبها في الأصل باللغة العربية، ثم تُنقلُ إلى الأردية، إلا ما ندر. على خلاف ما كان عليه الأستاذ الكبير أبو الأعلى المودودي، فقد كان يكتب بالأردية، ثم تنقل كتبه إلى العربية. وهذا ما جعل الشيخ أبا الحسن يهتم بالأدب العربي، ويؤلف فيه كتبًا للناشئين منذ شبابه، كما يهتم بتأسيس رابطة للأدب العربي الإسلامي في شيخوخته، وظل رئيسًا لهذه الرابطة حتى أدركته الوفاة.

ثالثًا – ثقافته الواسعة: التي جمعت بين القديم والحديث، وضمّت إلى الثقافة العربية الإسلامية الشرقية الثقافة الغربية الحديثة، وساعده على ذلك معرفته بعدد من اللغات، التي كانت نوافذه إلى الثقافات المختلفة، فقد كان يعرف العربية والأردية والهندية والفارسية والإنكليزية. وقد تجلى أثر هذه الثقافة الموسوعية في

إنتاجه العلمي وعطائه الفكري.

رابعًا – كتبه الأصيلة المعبرة عن ثقافته ووجهته: ووصولها إلى العرب، فعرفه الناس بها قبل أن يعرفوه شخصيًّا، فوجدوا في هذه الكتب الفهم السليم للإسلام، والفهم السليم للتاريخ، والفهم السليم للواقع. مع حماس وغيرة على الإسلام وعلى أمته عامة، وعلى العرب منهم بصفة خاصة، كما يبدو ذلك واضحًا في أول كتاب عرفه به العالم العربي، وهو «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

خامسًا – عنايته بالعرب وهمومهم ومشكلاتهم: لقد أبدى أبو الحسن اهتمامًا كبيرًا بالعرب وبمشكلاتهم المختلفة، وبنهضتهم، وهويتهم، باعتبارهم عصبة الإسلام، وأهل الرسول الكريم ﷺ، وأحفاد الصحابة الميامين. والمفروض فيهم أن يقودوا الركب الإسلامي، وأن يأخذوا بزمام القافلة الإسلامية.

وهذا ما نراه في كتب ورسائل شتى من مؤلفاته مثل: «من العالم إلى جزيرة العرب»، و«من جزيرة العرب إلى العالم»، و«اسمعياته» الموقظة التي خاطب بها عددًا من البلاد العربية مثل: «اسمعي يا مصر»، «اسمعي يا سوريا»، «اسمعي يا زهرة الصحراء» يعني الكويت، «اسمعوها مني صريحة أيها العرب»، «العرب والإسلام»، «العرب يكتشفون أنفسهم»، «الفتح للعرب المسلمين»، «نفحات الإيمان بين صنعاء وعمّان»، «مذكرات سائح في الشرق العربي»، «كارثة العالم العربي الحقيقية وأسبابها»، «مستقبل العرب بعد حرب الخليج» إلى رسائل كثيرة أخرى.

أما قضية فلسطين، فكان لها جزء كبير في تفكيره وفي شعوره، كما كان لها في محاضراته ورسائله وكتبه مكان أي مكان، مثل: «العوامل الأساسية في كارثة

فلسطين»، «إزالة أسباب الخذلان أهم من إزالة آثار العدوان» وهـذا اهـتمام قـديم ظاهر وبارز في تراث الشيخ كله. وكان من رأيـه أنهـا تحتـاج إلى شخصـية قياديـة إيمانية تنفخ في الأمة من روحها، مثلما فعل «صلاح الدين».

سادسًا – وسطيته واعتداله: وسـطيته الفكريـة، واعتدالـه في تنـاول القضـايا الخلافية، والمسائل الشائكة، فهو يعرض لها برفق، ويتناولها بحكمـة، تنـاول مَـن يحرص على أن يبني ولا يهدم، وأن يجمع ولا يفرق، تناول من يبحث عن القواسـم المشتركة لا عن نقاط التمايـز والاخـتلاف، تنـاول الطبيـب الممسـك بالمبضـع، لا القصاب الممسك بالساطور. وهكذا رأينا تناوله لقضية التصوف في كتابه: «ربانية لا رهبانيـة» وللشخصـيات التـي لهـا دور في التجديـد والإصـلاح في تاريخنـا الإسلامي، في كتابه: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» بأجزائه المتعددة ومنها عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وعن الإمام السرهندي، والإمام الدهلوي.

سابعًا – انتماؤه إلى مدرسة ومؤسسة علمية وفكرية متميزة: هي «ندوة العلماء» التي عُرفت بمؤسسيها من العلماء الكبار المجـددين، مـن أمثـال العلامـة «شـبلي النعماني» و«السيد سليمان الندوي»، وهذه المؤسسة قد جمعت بـين علـوم السـلف ومعارف الخلف، وبين صفاء العقيدة، وروحانية التصوف، وبـين العلـم الواسـع والإيمان الراسخ، وهي ترحب بكل جديد صالح، كما تستفيد من كل قـديم نـافع، وتأخذ من التراث مـا صـفا، وتـدع مـا كـدر. وتـؤمن بالثبـات عـلى الأهـداف والكليات، وبالتطور في الوسائل والآليـات. لهـذا أحبَّهـا المسـلمون المخلصـون العاملون لإصلاح الأمة وتجديد الدين.

ثامنًا – شخصيته المحببة لكل من عرفه: واقـترب منـه، ناهيـك بمـن خالطـه وعايشه، فهو رجل راسخ الإيمان، قوي اليقين، شديد الخشية لربـه، عـامر القلـب

بحبه، زاهد في الدنيا، مشغول بالآخرة، حسن الخلق، عفُّ اللسان، غيور على دينه، حامل لهموم أمته، غائب عن حظ نفسه، كأنما استُلَّ من القرن الأول استلالًا، ليوضع في زمننا هذا، هو بقية من السلف، وهدية إلى الخلف، وهو رباني الأمة بحق، فهو يعيش في هذه الدنيا بقلب أهل الآخرة، ويمشي على الأرض وعينُه ترنو إلى السماء. وهذا ما جعل كثيرًا من الناس – وأنا منهم – يتقرّبون إلى اللَّه تعالى بحبه.

كان هينًا لينًا، سهلًا سمحًا، كريمًا سخيًّا، فيه من خلق الحَسَنِ السبط رضي الله عنه ومن رفقه ولينه وزهده وتواضعه، ما يؤكد نسبه، ويؤيد حسبه، فهو حسنيٌّ خلقًا وأدبًا، كما أنه حسنيٌّ أصلًا ونسبًا.

ومما أذكره هنا من مناقب الشيخ أنه – خصوصًا في مكة والمدينة – كان يترك الفنادق الفخمة «خمسة نجوم» لينزل في بيوت بعض إخوانه أو تلاميذه من الهنود، وهي عادة بيوت متواضعة؛ لأن هذه البيوت أقرب إلى فطرته، وإلى حياته، وإلى بساطة معيشته وطبيعة مأكله ومشربه.

تاسعًا – إجماع قومه عليه: إن قومه – الذين يُعتبر سفيرًا عنهم – مجمعون عليه، لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح عنزان، كما يقولون. اجتمع عليه السلفيون والمتصوفون، والمذهبيون واللامذهبيون، كما اجتمع عليه المتثقفون بالثقافة الإسلامية التقليدية، والمثقفون بالثقافات الحديثة، وكان كلمة إجماع عندهم، أحبه الجميع لاعتقادهم بصدقة وإخلاصه وتجرده للَّه، وبُعْدِه عن الأغراض الشخصية، والمصالح الذاتية، والعصبية الجاهلية. ولهذا اختاروه رئيسًا لكثير من مؤسساتهم، مثل: مجلس عموم مسلمي الهند، ومجلس الأحوال الشخصية للمسلمين، وغيرها.

بل أقول: إن غير المسلمين من قومه كانوا يجلونه ويحترمونه، ويعرفون له قدره، الحكام منهم والمحكومين.

اختيار الشيخ للمجامع والمجالس المختلفة:

فلا عجب أن رأيناه من أوائل من اختيروا في «المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي» من أول يوم أنشئت فيه.

كما اختير في المجلس الاستشاري أو «المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية» بالمدينة المنورة منذ إنشائها.

وكذلك اختير في «المجلس الأعلى العالمي للمساجد» التابع لـ «رابطة العالم الإسلامي» منذ تأسيسه أيضًا.

وكذلك كان عضوًا في «المجمع الفقهي» المنبثق عن رابطة العالم الإسلامي منذ تأسيسه كذلك. وقد سعدتُ بزمالته فيه.

وقد اختير من قديم عضوًا في «المجمع العلمي العربي» بدمشق.

وكذلك عضوًا في «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة. وفي أكثر من مجمع علمي.

بداية اتصاله بالعالم العربي:

وقد بدأت صلةُ الشيخ بالعالم العربي، وهو لم يزل في شرخ الشباب. كما ذكر ذلك في كتابه: «في مسيرة الحياة» منذ قام برحلته الأولى سنة (1947م) إلى الحج.

ومن أبرز رحلاته المبكرة إلى العالم العربي وأهمها: رحلته إلى مصر ـ سنة (1951م)، والتي التقى فيها بالعلماء والدعاة والأدباء والمفكرين، والجماعات الدينية في مصر، وحاضر في كثير من أنديتها وجامعاتها، ومدنها وقراها، ومكث

فيها ستّةَ أشهر.

التقى بقيادة «الإخوان المسلمين»، مكتب الإرشاد العام للإخوان، وعلى رأسه الأستاذ صالح عشماوي، وفيه الأستاذ عبد الحكيم عابدين، والأستاذ عبد العزيز كامل، وغيرهم. وأصدر في ذلك رسالته: «أريد أن أتحدث إلى الإخوان»، والتقى بسيد قطب، والشيخ الغزالي، والشيخ البهي الخولي، والشيخ الشرباصي، والدكتور محمد يوسف موسى، والأستاذ أحمد أمين، وغيرهم رجال العلم والفكر والأدب من علماء الأزهر وشيوخه الكبار، وأساتذة الجامعات.

ومما أذكره عن هذه الرحلة: أني كنتُ أولَ من عَلِمَ بقدوم الشيخ إلى القاهرة. علمتُ بذلك قبل مقدمه بأيام، مِن بعض شباب الهند، الذين كانوا يدرسون بالأزهر.

قالوا لي: أتعرفُ الشيخ أبا الحسن الندوي؟

قلت: أليس هو مؤلف كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

قالوا: بلى.

قلت: إذن أعرفه.

قالوا: إنه على وشك الحضور إلى القاهرة.

قلت لهم: أرجوكم أن تبلّغوني بوصوله بمجرد حضوره لأسعى إلى زيارته. وقد فعلوا. فسارعت إلى زيارته. وكان يسكن في شقة صغيرة متواضعة في زقاق ضيق متفرع من «شارع الموسكي» بحي الأزهر. وقد أنزله بعض المصريين الأخيار ضيفًا في هذه الشقة؛ لأن الشيخ لا يحب النزول في الفنادق، وما فيها من

صخب ومتعة، لا تلائم حياته وحاله. وقد رأيت عيشته في شقته هذه ومعه اثنان من إخوانه من ندوة العلماء – فكانت غاية في البساطة والقناعة والزهد.

وحاضر في «دار الشبان المسلمين» وفي «كلية دار العلوم» وفي عدد من مدن مصر، منها: المحلة الكبرى التي كنت أعيش فيها وأخطب في أحد مساجدها. وأصلح الشيخ بيني وبين رئيس الجمعية الشرعية في نفس المدينة، كما ذهب إلى بلدة «نبروه» مركز طلخا، وألقى فيها كلمة طيبة، وطلب من الناس أن يبيتوا في المسجد، قيامًا لليل، واستجابة لقول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان: 64].

فاستجاب أكثر الحاضرين لدعوته، وباتوا للَّه في المسجد، وبات الشيخ معهم، على طريقة جماعة الدعوة والتبليغ.

والتقى بمجموعة مختارة من شباب الإخوان في البيت الذي كنت أسكنه مع إخواني في حي شبرا بالقاهرة، وكان حريصًا على أن يسمع منا عن أخبار الشيخ حسن البنا وعن انطباعاتنا عنه.

وكانت أيام الشيخ الندوي في مصر مباركة وحافلة ونافعة، وترتب على هذا أن ظهرت الطبعة الثانية من كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» مشتملة على عدد من المقدمات المعرّفة بالشيخ، والمنوّهة بشخصيته وبفضله، من سيد قطب ومحمد يوسف موسى وأحمد الشرباصي.

وقد ذهب بعد زيارة مصر إلى سوريا، وكان له فيها أنشطة ولقاءات مع رجال الدعوة والفكر والأدب أيضًا. وخصوصًا مع رواد العلم والثقافة والدعوة، الأساتذة الكبار: مصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، ومعروف

الدواليبي.

وقد سجل الشيخ هذه الرحلة وآثارها وثمارها في كتاب خاص سمّاه: «مذكرات سائح في الشرق العربي».

دعوة الشيخ للمؤتمرات والندات والمحاضرات:

ولقد دُعي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من أكثر البلاد العربية إلى المشاركة في مؤتمرات وندوات، أو لإلقاء محاضرات في الجامعات والأندية والمؤسسات والوزارات المختلفة.

دُعي الشيخ إلى المحاضر في سوريا في كلية الشريعة بدمشق، حيث كان عميدُها الداعية الفقيه الشيخ الدكتور مصطفى السباعي، وقد كان من ثمرة هذه المحاضرات الجزء الأول من كتاب: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

كما دُعي الشيخ إلى ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر، وكان له نشاط ملموس هناك، وقد سعدت باللقاء به في ذلك الحين.

ودُعي الشيخ إلى المحاضرة في جامعة قطر، كما دعي إلى المحاضرة من وزارة الأوقاف في قطر، كما شارك في المؤتمر العالمي للسنة والسيرة الذي كان بداية الاحتفالات بالقرن الخامس عشر الهجري في قطر. واختير الشيخ نائبًا لرئيس المؤتمر بالإجماع، وكان رئيس المؤتمر صديقه الشيخ عبد اللَّه بن إبراهيم الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

ودُعي الشيخ إلى المغرب والكويت والأردن، وإلى الإمارات العربية المتحدة، وكانت له صلة طيبة بالشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، وبعالم الشارقة الشيخ عبد اللَّه بن علي المحمود رَحِمَهُ اللَّهُ.

مهرجان ندوة العلماء - لكهنو:

ولمكانة الشيخ الكبيرة في قلوب العلماء والدعاة في العالم العربي، استجاب عددٌ كبير منهم لدعوة الشيخ للاحتفال بمرور (85) خمسة وثمانين عامًا على تأسيس «ندوة العلماء» في الهند، التي يتولى الشيخ رئاستها والإشراف عليها، وعلى مؤسساتها، ومنها «دار العلوم» والمعاهد التابعة لها.

وكان على رأس الحضور الإمام الأكبر شيخ الأزهر الرجل الصالح الشيخ عبد الحليم محمود رَحِمَهُ اللَّهُ[52]، الذي أبى الشيخ الندوي إلا أن يجعله رئيسًا لهذا المهرجان الكبير، الذي أقيمَ في مدينة «لكهنو» بالهند، وقد حضر الألوف بل عشرات الألوف من أبناء الهند هذا الاحتفال الكبير، حتى من غير المسلمين. وكان عُرْسًا للمسلمين لم تشهده هذه المدينة من قبلُ.

لقد عرفَ العالم العربي الشيخ الندوي بزياراته ولقاءاته، وعرفه بدروسه ومحاضراته، وعرفه بكتبه ومؤلفات، وعرفه بإيمانه وأخلاقياته، فأحبه وقدّره كل عربي مثقف محب لدينه، غيور على أمته، وإنه لأهل لهذا الحب والتقدير، وما عند اللَّه خير وأبقى إن شاء اللَّه.

***

الباب الخامس

(52) وممن حضر من العلماء المعروفين: الشيخ أحمد عبد العزيز المبارك رئيس القضاء الشرعي في دولة الإمارات المتحدة، والشيخ عبد اللَّه الأنصاري مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، والشيخ عبد المعز عبد الستار مدير تفتيش العلوم الشرعية في قطر، وكثير لا تحضرني أسماؤهم الآن.

أبو الحسن الندوي
كاتبًا ومؤلِّفًا

- لغة الشيخ.
- قصة تأليف «ماذا خسر العالم؟».
- مساهمة الشيخ في العلوم الشرعية التقليدية.
- قائمة بكتب الشيخ.

* * *

الباب الخامس

أبو الحسن الندوي

كاتبًا ومؤلفًا

يعد الشيخ أبو الحسن الندوي من أبرز الكتّاب الإسلاميين المعاصرين، ومن أكبر المؤلفين في الدراسات الإسلامية، ولا يكاد يوجد مسلم مهتم بالثقافة الإسلامية، إلا وقد قرأ للشيخ بالأردية لغته الأصلية، أو بالعربية التي أتقنها حقًّا، أو بالإنكليزية وغيرها من اللغات التي ترجمت إليها كتب الشيخ، وانتفع بها المسلمون في أقطار شتى.

لقد ترك الشيخ أبو الحسن تراثًا علميًّا غزير المادة، عظيم النفع، متنوع العطاء، فقد بدأ الكتابة وأمسك بالقلم في سنٍّ مبكرة من حياته المباركة، فكتب بالأردية لغة قومه، وكتب بالعربية، وهو في كلتا اللغتين كاتب مبدع، وأديب بارع. ولقد قالوا: إنه كتب بالأردية نحو سبعمائة (700) عنوان، ما بين كتاب ورسالة ومقالة، وكتب بالعربية أكثر من مائة وسبعين عنوانًا، بعضها كتب كبيرة، وأكثرها رسائل صغيرة الحجم، ولكنّها كبيرة المنفعة.

أعان الشيخ على هذا الإنتاج الثرّ، والعطاء العلمي الرحب أمران:

الأول: أن الشيخ لم تشغله الوظائف الحكومية والإدارية: التي تشغل كثيرين من العلماء، وتستهلك من أوقاتهم الكثير، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ شِبْهَ متفرّغ للقراءة والكتابة، إلا ما كان من إشراف على ندوة العلماء ومؤسساتها، وأحسبها لا تأخذ منه الكثير.

الآخر: أن اللَّه – جلّت حكمته – لم يقدر له أن ينجب أولادًا، يشغلونه بما يشغل به الأبناء والبناء آباءهم، فكان قدر اللَّه هذا في صف الشيخ، فأصبحت كتبه ورسائله هي الذرية التي تحمل اسمه، وتخلد ذكره من بعده.

لغة الشيخ:

واللغة التي يكتب بها الشيخ الندوي أو يخطب بها: لغةٌ أدبيةٌ راقيةٌ، سواء قرأت له مؤلفًا، أو استمعت إليه محاضرًا، وأعني اللغة العربية، فأنت لا تحس بأن صاحب هذا الكتاب أو الرسالة أعجميٌّ المولد والنشأة، وإن كان عربيَّ النسب والأصل.

ولقد سمعت من تلاميذ الشيخ من الهنود: أنه يعتبر من الأدباء المعدودين في الأردية، وهذا ليس بغريب، ولكنّ الغريب حقًّا أن يكون كذلك من أدباء العربية الذي يؤثرون في الفكر والشعور بكلماتهم الحية والجميلة وعباراتهم الناصعة والأخاذة.

ولقد شهد له بذلك من شهد من كبار الأدباء، وحسبنا منهم الأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي الذي قال في تقديمه لكتاب الشيخ: «مختارات من أدب العرب»:

«قد يشتغل غيرُ العربي بعلوم العربية حتى يكون إمامًا فيها، في اللغة والنحو، والصرف والاشتقاق، وفي سعة الرواية، بل إنَّ أكثر علماء العربية كانوا «في الواقع» من غير العرب، ولكن من النادر أن يكون فيهم من له هذا الذوق الأدبي الذي نعرفه لأبي الحسن، فلو لم تثبت عربيته بصحة النسب لثبتت بأصالة الأدب»!

من أول مؤلفاته وأعظمها: كتابه الفريد، الذي كان نسيج وحده: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» الذي عَرَفَ العالم العربيُّ به الشيخ الندويَّ، وكان

أحسن رسول إليه، قبل قدومه إلى مصر وغيرها من بلاد الوطن العربي.

ولا بد لنا هنا من وقفة حول هذا الكتاب المبارك. لنعرف قصّته، وكيف فكر فيه مؤلفه؟ وكيف اقتحم هذا الميدان البكر، في أوائل عهده بالتصنيف؟ وليس أفضل من قلم الشيخ نفسه يسطر لنا هذه القصة.

الشيخ يتحدث عن قصة كتابه: «ماذا خسر العالم؟»:

وقد حدّثنا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن قصة كتابه: «ماذا خسر العالم؟» بإفاضة، يحسن بنا أن نسجّلها هنا، لنعرف منها مجرى تفكير الشيخ ومنطلقه ووجهته، والعوامل العقلية والنفسية والدينية المؤثرة في توجيهه، قال:

لعل كثيرًا من القراء الفضلاء لا يعلمون أنَّ هذا الكتاب كان باكورة مؤلفاتي، وكان بداية تاريخ التأليف، وقد ألفتُ هذا الكتاب وأنا قد جاوزت الثلاثين من عمري تقريبًا[53]، وكان أضخم مَن أن يتناوله مثلي في مثل هذه السن المبكرة، وفي بلد بعيد عن مركز اللغة العربية وآدابها وثقافتها، وقد ولدت في الهند، ونشأت وتعلمت فيها، ولم يقدّر لي أيُّ سفر خارج الهند، وكانت الرحلة الأولى المباركة التي وفّقني اللَّه لها هي الرحلة التي قمتُ بها لأداء فريضة الحج سنة (1366هـ)، (1947م)، يعني بعد تأليف هذا الكتاب بثلاث سنوات، فكانت في الحقيقة مغامرة علمية لم أكن متهيئًا ولا مرشحًا لها، وكان من الجسارة أن أتناول هذا الموضوع الذي كان جديرًا بقلم أكبر من قلمي، وبعقل أوسع من عقلي، وبتجربة أطول وأوسع من تجربتي كمؤلف، ولكنَّ اللَّه يفعل ما يشاء.

لقد كنت أشعر برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها، كأنَّ سائقًا يسوقني

---

(53) كان تأليفه بين سنة (1363 - 1364هـ) = (1944 - 1945م).

إلى الكتابة في هذا الموضوع، ولو استشرت العقل، واعتمدت على تجارب المؤلفين، وعلى مقاديرهم ومكانتهم العلمية لأحجمت، ولعدلت عن هذه الفكرة، ولو ذكرت ذلك لأحد العقلاء العلماء، والكُتَّاب الفضلاء، لأشاروا عليَّ بالعدول عن خوض هذه المعركة العلمية العقلية، ولكنّه كان من الخير أنني لم أستشر أحدًا.

وكانت المراجع العربية التي كان لا بد من أن أستشيرها في الموضوع قليلة؛ لأنَّ ذلك العهد كان قريبًا بالحرب العالمية الثانية، وكانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند والبلاد العربية، فكانت الهند تستورد قليلًا من البضاعة العلمية والمراجع التاريخية والثقافة باللغة العربية التي كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة، ومصر بصفة خاصة.

أما المراجع العلمية باللغة الإنكليزية والأردية فكانت متوفرة، وكانت بمتناول يدي، وكانت في لكهنو – مدينة العلم والثقافة – مكتبات غنية فيها أحدث المطبوعات الإنكليزية والموسوعات العلمية، وكنتُ على اتصال بها، أستعيرُ منها الكتبَ وأطالعها، وأستفيد من بعض المكتبات الشخصية، وكان من تيسير اللَّه تعالى والإرهاص لتأليف هذا الكتاب، أنّي كنتُ طالعت قريبًا تاريخ أوروبا سياسة واجتماعًا، وديانة وخُلقًا، وحضارة وثقافة، بنهامة وفي توسع وعمق، وعُنيت بموضوع الصراع بين الديانة والعلم، والبلاط والكنيسة دراسة اختصاصية، وتاريخ الأخلاق في أوروبا وتطورها، والعوامل التي صاغتها صياغة خاصة، انتهت بها إلى هذا المصير المادي، الذي أثر في مسيرة الشعوب الغربية والشرقية واتجاهاتها، تأثيرًا عامًّا وحاسمًا.

هذا عدا تاريخ الأقطار الشرقية والإسلامية، ودياناتها وحركاتها وفلسفاتها، وتاريخ الإسلام والمسلمين، وتاريخ العرب في الجاهلية والإسلام، من خلال

الكتب المختصة بهذا الموضوع، ومن خلال الشعر والأدب، فكان أيسر لي نسبيًّا بفضل ثقافتي الدينية والأدبية والتاريخية، ولأن موادها كانت متوفرة في مكتبة ندوة العلماء الكبيرة، ومكتبات شخصية، وبفضل الاتصال الدائم بحركة الترجمة والنشر في شبه القارة الهندية، ومطالعة المجلات والصحف العلمية الراقية، وما تنشره من بحوث ودراسات علمية.

زد إلى ذلك التكوين العقلي والنفسي الممتاز، المؤمن بخلود رسالة الإسلام، وقيادة محمد عليه الصلاة والسلام وإمامته للأجيال البشرية عبر العصور، وبالنقص الواقع في طبيعة الحضارة الغربية، ومزاج الأمم الغربية، الذي لا يفارقها في حال من الأحوال، وظهوره في شكل مجسم في قيادتها، وذلك نتيجة تربية أخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني أمين ندوة العلماء العام، الذي كان مثالًا فريدًا في الجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية العصرية، وعمق فهمه للإسلام، واتزانه الفكري البعيد عن كلِّ غلوّ وتطرف.

وقد جعلني كل ذلك أنتفع من دراساتي المتنوعة – المتناقضة أحيانًا، المشوِّشة لكثير من القراء، الذين لا يزالون في سن المراهقة الفكرية – وأستخرج منها نتائج إيجابية معينة، و﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: 66]. وتزداد بها ثقتي بصلاح الإسلام للقيادة والسيادة في كل عصر، وإيماني بأن محمدًا ﷺ، هو خاتم الرسل، وإمام الكل، ومنير السبل.

وكنت أشعر بخطر الموضوع وأهميته، وبقلة بضاعتي، وحداثة سني، وقلة أعواني، وجِدّة موضوع الكتاب وطرافته، ولكن لم أكن في الحقيقة مخيّرًا، بل كنت مسيّرًا، كأن هاجسًا يهجس في ضميري، ويقول لي: لا بد من وضع كتاب في هذا الموضوع.

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس وإثارته لدهشة الكثير منهم، أن الموضوع كان طريفًا مبتكرًا «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» هل للمسلمين صلة وثيقة بالمصير الإنساني وبالأوضاع العالمية، حتى يجوز أن يقال: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أو ماذا سيربح العالم ويجنيه من الفوائد، بتقدم المسلمين وتسلمهم لقيادة البشرية؟

كان الناس قد اعتادوا في ذلك العصر، وقبل العصر الذي أُلِّفَ فيه هذا الكتاب، أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العالمي، أو ينظروا إلى المسلمين كشعب عادي وكأمة من أمم كثيرة، ولكن تشجّع مؤلف هذا الكتاب وتخطّى هذه الحدود المرسومة، وخرج من الإطار التقليدي الذي فرض على المؤلفين والكتاب من العرب والعجم، فأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين، وشتان بين النظرتين، نظرة يُنْظَر بها إلى المسلمين من خلال العالم ومن خلال الحوادث التي جرت في العالم، ومن خلال التطورات التي حدثت في التاريخ، المسلمون شعب من الشعوب، يخضعون لما يجري في العالم في إطار عالمي واسع، فكان المنهج الفكري العام وأسلوب البحث الدائم، ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلاني؟ وبسبب انقراض الحكومة الفلانية، ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرى التي حدثت في الغرب؟ ماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام والمسلمين؟ وماذا خسر المسلمون بفقرهم في الاقتصاد، وفي السياسة، وفي القوة الحربية؟

كان ذلك الطريق المرسوم التقليدي الذي اعتاده الناس، ولكنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألهمني وشرح صدري لأن أكتبَ في موضوع: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» كأنَّ المسلمين هم العالم العالَمي المؤثر في مجاري الأمور في العالم كله،

ليس في بقعة جغرافية محددة، أو منطقة سياسية خاصة، هل المسلمون حقًّا في وضع يمكن أن يقال: إن العالَم يخسر ـ شيئًا بانحطاطهم؟ هل المسلمون على مستوى يجوز أن يقال: إن العالَم قد خسر شيئًا بتقهقرهم، وبتخلفهم عن مجال القيادة العالمية؟ إنني أخاف وأخشى أنَّ كثيرًا من الكُتَّاب الإسلاميين الذين كانت لهم مواقف جليلة، وكانت لهم سوابق عديدة، لم يفكروا هذا التفكير. إن تشويه التاريخ الإسلامي، والنظر إليه من زاوية ضيقة، ومركب النقص الذي أصيب به الجيل الجديد المثقف، كان يعوق كثيرًا من الباحثين عن أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم وبقضية الإنسانية، أين المسلمون من القيادة العالمية؟ المسلمون فقراء، المسلمون ضعفاء، المسلمون محكومون من الغرب، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة ... فهل يصحُّ أن يُربط مصير العالم أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين وواقعهم؟

لا! إن كثيرًا من الناس لم يكونوا يصدقون في ذلك الحين أن المسلمين لهم من الأهمية والخطر والتأثير ومن المكانة، ما يؤهلهم لهذا البحث، ويسوّغ لمؤلف أن يؤلف كتابًا، فيبحث عن مدى خسارة العالم الإنساني والعالم المعاصر بانحطاط المسلمين، إن الموضوع كان خطيرًا، وكان البحث فيه شبه مجازغة ومغامرة علمية، ولكنَّ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعان على ذلك.

ألّفتُ هذا الكتاب على تردد وتخوف، لأنني كنت جديدًا في مجال التأليف، خصوصًا في اللغة العربية[54]، فقد كانت صلتي بها صلة دارس، يولد بعيدًا،

(54) سبق للمؤلف تأليف سلسلة: «قصص النبيين» للأطفال (1/ 2)، و«القراءة الراشدة» (1/ 3)، و«مختارات من أدب العرب»، وكلها كتب دراسية ألفت لأبناء المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية في المعاهد الدينية في الهند.

ويعيش بعيدًا عن مركز الثقافة العربية، وعن مركز العلوم الإسلامية الأصيل، وكان يساورني شك، هل ينال هذا الكتاب تقديرًا في البيئات العربية الإسلامية البعيدة؟ فأرسلت قائمة محتوياته إلى الدكتور «أحمد أمين بك» رئيس «لجنة التأليف والترجمة والنشر» في مصر، ورئيس «الإدارة الثقافية» في «جامعة الدول العربية» وقد نالت كتبه خصوصًا سلسلة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» إعجاب القرّاء الباحثين، وكان لها دوي في الأوساط العلمية، وكنت معجبًا بها، وقد درستُها دراسة عميقة، وعلقت على آرائه بالموافقة في الغالب، وبالنقد والاختلاف في بعض الأمكنة، وأعجبت بأسلوبه المركز الذي يجري مع الطبع، وآثرت أن يصدر هذا الكتاب من هذه المؤسسة العلمية، التي كانت لها ولما يصدر منها قيمة علمية كبيرة في الشرق العربي، فيقبل على قراءته الشباب المثقف، والمعنيون بالأبحاث العلمية والدراسات الموضوعية، وأنا لا أعلم مصير هذه الأوراق التي تعطي فكرة إجمالية عن الكتاب، ومؤلفه مجهول، ليس له أثر علمي ولا شافع ولا مزك.

وفوجئت بكتاب تلقيته منه يطلب مني فيه نموذجًا من هذا الكتاب، فأرسلت إليه قطعة من الكتاب.

وقعت موضوعات الكتاب، والعناوين الجانبية التي كانت تدل على محتويات الكتاب، وما حوته من مادة وبحوث، من الدكتور موقعًا حسنًا، ولكنّه تخوّف أن يكون هذا الكتاب الذي صدر من قلم عالم ديني نشأ وتثقّف بعيدًا عن العالم الغربي يغلب عليه الطابع الديني واللغوي – شأن علماء الأزهر والمعاهد الدينية القديمة – فسأل: هل استفاد المؤلف من المراجع الأجنبية؟ فلما كان الجواب بالإيجاب، وأرسل المؤلف ثبت المراجع الإنكليزية، اطمأن الدكتور، وأخبر بأن اللجنة قررت

طبع هذا الكتاب، وأبدى إعجابه بالكتاب، سواء من الناحية الأدبية أو الناحية المعنوية، وكان اليوم الذي تلقّى فيه المؤلف هذه الرسالة من الدكتور، من أعظم أيام العمر فرحًا وسرورًا، لا ينساه المؤلف حتى هذا اليوم.

ومضت على ذلك شهور، وأنا لا أعلم مصير هذا الكتاب، وذلك في سنة (1369هـ - 1950م) وفوجئت بنسخة مطبوعة عند سفير سوريا الأستاذ «جواد المرابط» عضو المجمع العلمي بدمشق، كان قد استصحبها من القاهرة، وكان يبدي إعجابه بعمق بفكر علماء الهند وأصالتهم، مستشهدًا بهذا الكتاب، الذي وقع إلى يده في زيارته القريبة لمصر، وهو لا يعرف أنه يتحدث إلى مؤلفه. ومن السهل الميسور تقدير فرح المؤلف الشاب المغمور، الذي يفاجأ بأثره العلمي التأليفي الأول الصادر من أكبر دور النشر، فاستعاره من سعادة السفير، ليردّه إليه بعد مطالعته، ولكنّه فوجئ كذلك بأن المقدمة الصغيرة التي قدم بها الدكتور أحمد أمين هذا الكتاب، لم تكن فيها تلك القوة التي كان يتوقعها المؤلف من كاتب إسلامي كبير كالدكتور أحمد أمين، وكان متحفظًا شديد التحفظ في إبداء انطباعاته عن الكتاب ومؤلفه.

ولم يكن الأمر غريبًا - وإن كان ثقيلًا على المؤلف - فليس كل من يقدم كتابًا يتحمس للموضوع الذي كتب فيه، فلا يكون ذلك إلا إذا كان المقدم يتجاوب مع فكرة المؤلف، ويؤمن بها إيمانًا عميقًا، وليس كل باحث علمي وكاتب كبير - وإن كان في درجة الدكتور أحمد أمين بك - يرى أنّ العالم قد خسر حقًّا، والإنسانية قد نكبت نكبة كبيرة بانحطاط المسلمين، وانسحابهم عن ميدان القيادة والتوجيه العالمي، فذلك نمط خاص للتفكير والتفسير للتاريخ، ليس من اللازم أن يقتنع به كل مؤلف ودارس، وليست التَّبِعة على الدكتور أحمد أمين - وفضله لا يُنكَر في

نشر هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الموقرة – ولكنَّ التبعة على مؤلف الكتاب الذي أمَّل فيه الآمال البعيدة، وحمله ما لم يتهيأ فه فكريًّا وعلميًّا، ولم تساعد ظروفه التربوية والدراسية الخاصة على انتهاج هذا المنهج، ثم لعل الدكتور أحمد أمين الذي كان يعتبر من أساتذة الجيل الجديد ومن كبار المؤلفين والأدباء، خاف – وله الحق – أن يعطي المؤلف الذي لا يعرفه معرفة شخصية، ولم يتحقق مستواه العلمي والنظرة التي ينظر بها إليها مواطنوه وعلماء بلاده، أكثر مما يستحق، فيقال: إنه كساه ثوبًا سابغًا فضفاضًا أكبر من قامته وقيمته، وسامحه اللَّه، وجزاه عن المؤلف والقرّاء أحسن الجزاء، فقد كان السبب في وصول هذا الكتاب إلى الأوساط العلمية المتنورة التي لا تعير كتابًا يصدر عن مؤسسة دينية شيئًا من العناية والاهتمام.

واتفقت رحلة المؤلف إلى مصر في يناير سنة (1951م) بعد ما مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر، فوجدَ أنّ الكتاب قد شقَّ طريقه إلى الأوساط العلمية والدينية، وحلَّ منها محلًّا لم يكن يتوقعه المؤلف أن يحل به، وقد قرئ في نطاق أوسع من المثقفين والمعنيين بقضية الإسلام وانتفاضته، وصحوة المسلمين، وكان نشاط «الإخوان المسلمين» قد بدأ يدب، وخُفِّفَ الخناق عليهم بعض التخفيف، وكأن هذا الكتاب قد جاء في أوانه ومكانه، وتناغم مع شعورهم وما يدعون إليه، وكان الجرح عميقًا وداميًا شهادة الإمام الشهيد وحَلُّ حركة الإخوان، فجاء هذا الكتاب مسلّيًا معزيًا، بل كسلاح علمي يدافعون به عن فكرتهم، وشحنة جديدة وزادًا ومددًا «لبطاريتهم» فقرءوه في المعتقلات، وقرروه في منهج الدراسة والمطالعة، واستشدوا ببعض عباراته في المحاكم، واستقبلوا – بطبيعة الحال – مؤلّفه بحماس وحب، وكان الكتاب خير معرّف للمؤلف الزائر الجديد، وممهدًا للثقة به والحديث

معه.

وكان الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ سيد قطب في مقدمة من رحّب بهذا الكتاب، وعُنِيَ به، وشجّع تلاميذه وإخوانه على مطالعته، وفي يوم من الأيام[55] تلقى المؤلف دعوة من الأستاذ سيد قطب لحضور ندوة تجتمع في منزله بحلوان كل جمعة، وتبحث في موضوع إسلامي، أو تستمع إلى تلخيص كتاب بقلم أحد الحاضرين، وتتناول البحث فيه، وكان الموضوع ذلك اليوم كتاب: «ماذا خسر العالم؟» وقد لخصه أحد تلاميذه من خريجي جامعة فؤاد الأول، فلبَّى المؤلف هذه الدعوة الكريمة الحبيبة، التي هي رمز لتقدير مجهوده العلمي الكتابي المتواضع وتشريف له، فحضر هذه الندوة وساهم في البحث، وأجاب عن بعض الأسئلة الموجهة إليه كمؤلف.

وهنالك بدت له فكرة الطلب من الأستاذ سيد قطب ليقدم هذا الكتاب بقلمه المؤمن القوي، وأسلوبه العلمي الهادف، وقبل الأستاذ سيد قطب هذه الدعوة بسرور وحماس، وكتب تلك المقدمة القوية التي زادت في قيمة الكتاب، وقوته[56].

وصادف ذلك طلب الأستاذ الفاضل والعالم المؤمن الدكتور محمد يوسف

---

(55) كان ذلك في (19/ 8/ 1370هـ) الموافق (25/ 4/ 1951م) «مذكرات سائح في الشرق العربي».

(56) وإلى القارئ مقتطف صغير من تقديم الأستاذ سيد قطب:

«إن الخصيصة البارزة في هذا الكتاب كله هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعد نموذجًا للبحث الديني والاجتماعي فحسب، بل نموذجًا كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية».

ويقول:

«ومن هنا يُعد هذا الكتاب نموذجًا، للتاريخ، كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثر بالطريقة الأوروبية، التي ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة، وهذا التحقيق».

موسى، أستاذ كلية أصول الدين في الأزهر، ورئيس جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر – الذي كان من كبار المعجبين بهذا الكتاب المنوّهين به، والحافزين على قراءته – إصدار الطبعة الثانية المنقحة من جماعة الأزهر[57]، فسمح له المؤلف شاكرًا مسرورًا، وأخذ الدكتور التصريح والموافقة من الدكتور أحمد أمين، وكتب مقدمةً يتجلى فيها إخلاصه وحبه، واستجابته للفكرة، حلّى به جِيدَ الكتاب[58].

وفاجأ المؤلف صديقه الدكتور أحمد الشرباصي أحمد علماء الأزهر وأساتذته، في إحدى زياراته، فاختلس منه معلومات عن أسرته وبيئته ونشأته، ودرساته وحياته، لا يعلم المؤلف ماذا سيصنع بها: فكوَّن بها مقالًا عن المؤلف عنونه بـ: «أخي أبو الحسن» «صورة وصفية» وضمّه إلى الكتاب، ولم يعلم به المؤلف إلا حين صدرت الطبعة الثانية سنة (1953م)، وتلت هذه الطبعة طبعات وترجمات في لغات الشرق والغرب، وها هي ذي الطبعة الثالثة عشرة القانونية، وهذا قصة الكتاب في إيجاز وصدق وصراحة، ولله المنُّ والفضل أولًا وآخرًا.

مساهمة الشيخ في العلوم الشرعية التقليدية:

ولا بد لنا هنا من وقفة أخرى، لنعرف في أي مجال كانت تصنيفات الشيخ. وإلى أي حدٍّ أسهم في التأليف في العلوم الشرعية التقليدية؟

لقد درس الشيخ العلوم الشرعية التقليدية أيام طلبه العلم على مشايخها المعتبرين في دار العلوم ندوة العلماء، وفي دار العلوم ديوبند وأتقنها.

---

(57) وذلك في (3) حزيران (1951م).

(58) ومما جاء في هذه المقدمة قوله:

«وأشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى في أقل من يوم، وأُغرمت به غرامًا شديدًا، حتى لقد كتبتُ في آخر نسختي وقد فرغت منه: «إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام».

ولكنّه لم يساهم بالتأليف في كل هذه العلوم. فقد كان عقله متجهًا إلى مجالات الدعوة والفكر، وبيان حقائق الإسلام، والرد على أباطيل خصومه، وتجلية الأمور الغامضة على الناس في التراث والتاريخ، والعمل على كل ما يزيح الضبابية عن حقيقة الدين، ورسالة محمد ﷺ.

الندوي والقرآن الكريم:

كتب في الدراسات القرآنية: «تأملات في سورة الكهف» وقد نُشرت تحت عنوان: «الصراع بين الإيمان والمادية». وكتب كتابه: «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

وكتب رسائل شتى في ضوء آيات قرآنية كانت ملهمة له، مثل حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73].

وقارئ كتبه ومقالاته يلمس أنه من المتذوقين الكبار لكتاب اللَّه، الذين يحسنون الاستشهاد به، وخصوصًا في النواحي الإيمانية والاجتماعية، والأمثلة على ذلك كثيرة وفيرة.

الندوي وعلوم السنَّة:

وكذلك كان للشيخ باع في الحديث وعلومه كما تشهد بذلك المقدمات الضافية التي كتبها لبعض كتب المؤلفين المعاصرين في الحديث، وقد ضُمَّت هذه المقدمات النفيسة لتظهر في كتاب بعنوان: «دراسات في الحديث النبوي» اشتمل على:

1 - تقديمٌ لكتاب: «الأبواب والتراجم للبخاري» للعلامة محمد زكريا الكاندهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

2 – تقديمٌ لكتاب: «تكملة فتح الملهم في شرح صحيح مسلم» للعلامة محمد تقي العثماني رَحِمَهُ اللَّهُ.

3 – تقديمٌ لكتاب: «الكوكب الدري على جامع الترمذي» للمحدث رشيد أحمد الجنجوهي رَحِمَهُ اللَّهُ.

4 – تقديمٌ لكتاب: «بذل المجهود على سنن أبي داود» للعلامة المحدث خليل أحمد السهارنفوري رَحِمَهُ اللَّهُ.

5 – تقديمٌ لكتاب: «أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك» للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ.

6 – تقديمٌ لمقدمة كتاب: «لامع الدراري على جامع البخاري» له أيضًا.

7 – تقديمٌ لكتاب: «تهذيب الأخلاق» للعلامة المؤرخ عبد الحي بن فخر الدين الحسني رَحِمَهُ اللَّهُ.

8 – تقديمٌ لكتاب: «روائع الأخلاق» للأستاذ أبي سحبان الندوي.

وقد حوى هذا المجموع الثمين إلى جانب ذلك بحثًا قيمًا عن الإمام مالك وكتابه: «الموطأ»، وعرضًا آخر بعنوان: «نبذة عن تاريخ الحديث والمحدثين في الهند».

استعرض فيه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أحوال البلاد الهندية منذ الفتح الإسلامي، وما نتج عنه من وصول أعداد من المصنفين والمحدثين إلى تلك البلاد، إلى مدرسة الشيخ العلامة: «ولي اللَّه أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي» مجدد الحديث في تلك الديار، وهو وبنوه الكرام وتلاميذهم رحمهم اللَّه جميعًا، وما تمتعت به كثير من المدن

والقرى الهندية من نهضة علمية، وبالأخص في علوم السنة النبوية، مثل: دلهي، ولكنهو، وسهارنفور، وباني بت، وديوبند، ومراد آباد، وجنجوه، وكنج مراد، وغيرها ...

وهذا العرض وإن كان تمهيدًا لتقدمة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على كتاب: «أوجز المسالك» إلا أنه يصلحُ أن يكون بحثًا مستقلًّا لعظيم فائدته.

وللشيخ كذلك دراستان أخريان حول الحديث: أحدهما: «مدخلٌ إلى دراسة الحديث النبوي الشريف». والآخر: «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته». وقد كان هذا البحث محاضرة ألقاها في «رابطة العالم الإسلامي».

ولقد كتب بعض مترجميه عن مشاركته في الحديث في مجلة: «البعث الإسلامي».

الندوي والتاريخ:

وأعظم مجال ساهم فيه الشيخ بقوة وتفوق، هو التاريخ الإسلامي، ابتداءً بالسيرة النبوية التي هي بداية هذا التاريخ.

وهو من الغوّاصين في أعماق التاريخ، المطلعين على بواطنه وآفاقه، العارفين بنقاط القوة ونقاط الضعف فيه، وقد وظّفه في خدمة فكرته في إيقاظ الأمة، وتنبيهها على قيمتها بين الأمم، ورسالتها في العالمين.

ولقد تجلت هذه المعرفة بالتاريخ منذ كتابه الأول، الذي قدمه إلى المسلمين في العالم العربي والإسلامي: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

كما تجلى ذلك فيما كتبه عن التجديد والمجددين في التاريخ الإسلامي، في

محاضراته بجامعة دمشق، وقد نُشرت باسم: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ... فقد تناول التاريخ تناولًا جديدًا، وبيّن أن مِن سنن اللَّه تعالى أن يظهر في كل عصر ـ المجدد الذي تحتاج إليه الأمة، ليسد ثغرة في بنيانها لا يسدها سواه. وعلى هذا الأساس تكلم عن: «عمر بن عبد العزيز»، وعن «الحسن البصري»، وعن «الغزالي»، وعن «عبد القادر الجيلاني»، وعن «جلال الدين الرومي» وغيرهم.

ومما يذكر له هنا: أنه اهتدى إلى مصادر للتاريخ لم يهتد إليها غيره، مما لا يحسب من مصادر التاريخ في العادة.

وأصدر بعد ذلك دراسةً عن شيخ الإسلام «ابن تيمية»، ودراسةً عن الإمام «السرهندي» الذي لقّب بمجدد الألف الثاني. وعن حكيم الإسلام في الهند المجدد الكبير «أحمد بن عبد الرحيم» المعروف باسم: شاه ولي اللَّه الدهلوي.

كما تحدث عن الإمام الذي لم يأخذ حقه من الاعتراف والإنصاف «أحمد بن عرفان الشهيد» البطل العالِم الرباني المجاهد، أحد جدود الشيخ اللامعين في سماء الهند.

كما أصدر في السنوات الأخيرة كتابه القيم عن: «المرتضى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه».

ومن ثَمَّ نجد تركيزه في التاريخ على الشخصيات المؤثرة، سواء في الجانب العلمي والفكري مثل: الغزالي وابن تيمية، أم الإصلاحي والتربوي مثل: السرهندي والدهلوي، أم الجهادي والسياسي مثل: عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي، وأحمد بن عرفان.

الندوي والفقه:

ولكن مما يلاحظ في تراث الشيخ أنه لم يصنف في الفقه، رغم أنه درسه فيما درس من علوم الشرع المتوازنة. ولكنه لم يكتب فيه كتابًا خاصًّا، حتى إن كتابه: «الأركان الأربعة» وهو يتحدث فيه عن الصلاة والزكاة والصيام والحج، لم يُعنَ فيه بالناحية الفقهية، بل هو يبحث في مكانتها وخصائصها وأسرارها وآثارها في النفس والمجتمع والحياة. فقد كتبه بلغة الداعية والمربي، لا بلغة الفقيه.

وسِرُّ ذلك فيما يبدو لي جملةُ أمورٍ:

أولها: أنه لم يتبحر في الفقه، كما تبحر في التاريخ مثلًا.

والثاني: أنَّ ذوقه العقلي كان أميل إلى كليات الدعوة والفكر منه إلى جزئيات أحكام الفقه.

والثالث: أن ورعه الشديد، جعله يبتعد عن تحمّل تبعة إفتاء الناس في الحلال والحرام، فرأى السلامةَ في البعد عن هذا المجال.

ولقد كان عضوًا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وكنتُ أزاملُه في ذلك، ولكنّه لم يكن يشارك ببحث، أو مناقشة، إلا قليلًا.

والذي يبدو لي من نهج الشيخ في كتاباته: أنه لم يكن يُعنى بالاجتهاد الفقهي كثيرًا، ووكله إلى المتبحرين فيه، والمؤهلين للاجتهاد بشروطه وضوابطه. وحسب عوام الناس أن يسيروا وِفْقَ مذاهبهم التي نشأوا عليها، وتلقوها من علماء بلدانهم.

ولذا أجد فارقًا بينه وبين الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد كان داعية من الطراز الأول، وكانت الدعوة لحمتَه وسداه، ولكنه دخل في الفقه من باب الدعوة، وأثار

قضايا فقهية، جلبت عليه سخط كثيرين ممن لا يرون رأيه، وما أكثرهم! كما رأينا ذلك في رؤيته لعدد من القضايا، مثل قضايا المرأة «دية المرأة مثلًا»، وقضايا الدولة «الجهاد هل هو هجومي أو دفاعي»، «الشورى أهي مُعْلِمة أم مُلْزِمة؟» ... إلخ. وقضايا المجتمع مثل الغناء والموسيقى ... إلخ[59].

وقد أدخلت هذه النظرات الفقهية الشيخ الغزالي في معارك مع مخالفيه كما حدث بعد كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث».

والشيخ الندوي - واللَّه أعلم - لا يريد أن يدخل في معارك من هذا النوع، بل هو يريد أن يجمع القلوب أولًا على صدق الإيمان، وإخلاص العبادة، واستقامة الأخلاق، وحسن التعامل مع اللَّه والناس.

ومشربه هنا قريب من مشرب الشيخ حسن البنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد كان حريصًا أن يجمع ولا يفرق، وأن يبني ولا يهدم. وقال في أحد أصوله العشرين الشهيرة: «لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في الأحكام الشرعية أن يتبع إمامًا من أئمة الدين، ويحسن به أن يتعرف على أدلة إمامه ما استطاع، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل، متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم، حتى يبلغ درجة النظر».

قائمةٌ بكتب الشيخ:

ويحسن بنا أن نضع أمام القارئ قائمة بتراث الشيخ العلمي المنشور بالعربية من الكتب والرسائل، وربما قد دخل بعضها في بعض. وها هي مكتوبة مرتبة على

(59) انظر: فصل «الغزالي والفقه» في كتابنا: «الشيخ الغزالي كما عرفته» نشر دار الشروق بالقاهرة.

حروف الهجاء[60].

(أ)

1 - «**الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقية**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - ندوة العلماء - لكهنو الهند.

2 - «**أحاديث صريحة في أمريكا**».

الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت.

3 - «**أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر والتوزيع، دائرة الشيخ علم اللَّه - راي بريلي - الهند.

4 - «**إذا هبت ريح الإيمان**».

الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، ودار القلم - الكويت.

5 - «**ارتباط مسيرة الإنسانية ومصيرها بقيام المسلمين بواجبهم، ودورهم في تكوين وحدة وتوجيه الدعوة**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي لكنهو الهند.

6 - «**الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة**».

الناشر: دار القلم - الكويت، دار القلم - دمشق.

---

(60) مقتبسة من كتاب «أبو الحسن الندوي كاتبًا ومفكرًا» للأستاذ نذر الحفيظ الندوي.

7 - «**أريد أن أتحدث إلى الإخوان**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

8 - «**إزالة أسباب الخذلان أهم من إزالة أثار العدوان**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر راي بريلي - الهند.

9 - «**أزمة إيمان وأخلاق**».

محاضرة ألقيت في مركز جمعية إنقاذ فلسطين ببغداد، وقد ضمت إلى كتاب: «إلى الإسلام من جديد».

10 - «**أسبوعان في المغرب الأقصى**».

الناشر: مطبعة الرسالة المغرب ومؤسسة الرسالة - بيروت.

11 - «**الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي الهند، ودار الصحوة بالقاهرة، ودار المنارة بجدة.

12 - «**الإسلام فوق القوميات والعصبيات**».

مقالٌ قدّم في الجلسة التأسيسية لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

الناشر: مكتبة الرأي بجدة.

13 - «**الإسلام في عالم متغير**».

الناشر: مؤسس الكتاب - بيروت.

14 - «**الإسلام في عالم متغير - بحوث إسلامية قيمة**».

الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت.

15 - «**الإسلام والحضارة الإنسانية وواقع العالم الإسلامي - أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين**».

16 - «**الإسلام والحكم**».

الناشر: دار المختار الإسلامي - القاهرة.

17 - «**الإسلام والغرب**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

18 - «**الإسلام والمستشرقون**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند. وطبعته مؤسسة الرسالة بيروت بعنوان: «الإسلاميات».

19 - «**اسمعوها مني صريحة أيها العرب**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

20 - «**اسمعي يا إيران**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي الهند.

21 - «**اسمعي يا زهرة الصحراء**».

الناشر: مكتبة المنار - الكويت.

22 - «**اسمعي يا سوريا**».

الناشر: مطبعة الجامعة الإسلامية بحلب.

23 – «**اسمعي يا مصر**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي – الهند.

24 – «**أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية ومدارسها الفكرية ومراكزها التعليمية والتربوية في الهند، ودورها ونجاحها في إصلاح العقيدة، ومحاربة الجاهلية والخرافة، والدعوة إلى الدين الحنيف الخالص، والانتفاضة الإسلامية**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي – الهند.

25 – «**أكبر خطر على العالم العربي. المؤامرات والمخططات الدقيقة العميقة لقطع العرب عن الإسلام «استعراض تاريخي تنبيه وإنذار»**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر – راي بريلي الهند، ودار السلام – القاهرة.

26 – «**إلى الإسلام من جديد**».

الناشر: دار القلم – دمشق، والمجمع الإسلامي العلمي – الهند، ودار المختار الإسلامي – القاهرة.

27 – «**إلى الراية المحمدية أيها العرب**».

الناشر: أبو الحسن علي «الندوي» – لكنهو الهند.

28 – «**إلى شاطئ النجاة**».

طبع بمطبعة بيداري ماليكاؤن ناسك – الهند.

29 – «**إلى قمة القيادة العالمية**».

مقتبس من كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

30 - «**إلى ممثلي البلاد الإسلامية**».

الناشر: مكتبة الإسلام - لكهنو الهند.

31 - «**الإمام الحسن البصري**».

مستخرج من كتاب: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».

الناشر: دار المختار الإسلامي - القاهرة.

32 - «**الإمام عبد القادر الجيلاني**».

مستخرج من كتاب: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، دار المختار الإسلامي - القاهرة.

33 - «**الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف به أحمد بن عرفان الشهيد**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

34 - «**الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، وكتابه صحيح البخاري**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند.

35 - «**الأمة الإسلامة، وحدتها، ووسطيتها، وآفاق المستقبل**».

الناشر: دار الصحوة - القاهرة.

36 - «**أمريكا وأوروبا وإسرائيل**».

«كشف حقيقة صارخة وتنبيه على خطر داهم».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

37 - «**إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب**».

الناشر: حسين بن محمد - بومباي - الهند.

38 - «**أهمية الحضارة في تاريخ الديانات وحياة أصحابها**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند، ومكتبة الدار بالمدينة المنورة.

39 - «**أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية وأثره البعيد في اتجاهاتها وقياداتها**».

الناشر: مكتبة الأمانة العامة لندوة العلماء - لكهنو الهند.

(ب)

40 - «**بين الإنسانية وأصدقائها**».

طبع بمطبعة بيداري ماليكاؤن ناسك - الهند.

41 - «**بين الجباية والهداية**».

الناشر: مكتبة الإسلام - لكهنو الهند.

42 - «**بين الدين والمدينة**».

الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

43 - «**بين الصورة والحقيقة**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

44 - «**بين العالم وجزيرة العرب**».

حديثان أذيعا من الإذاعة السعودية بجدة عام (1950م) ونشرا في رسالة مستقلة بمصر عام (1951م).

45 - «**بين نظريتين**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

(ت)

46 - «**تأملات في القرآن الكريم**».

الناشر: دار القلم - دمشق.

«**تأملات في سورة الكهف - الصراع بين الإيمان والمادية**».

47 - «**التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية**».

الناشر: مؤسسة الرسالة بيروت، ودار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ودار المختار الإسلامبي بالقاهرة.

48 - «**ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد**».

الناشر: مطبعة المنار بمصر عام (1350هـ).

49 - «**ترشيد الصحوة الإسلامية**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند، وطبعته دار السلام بالقاهرة بالعنوان نفسه مع ثلاث محاضرات أخرى، هي: «منهجٌ أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء»، «الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر»، «النبي الخاتم والدين الكامل».

50 - «**تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند.

51 - «**تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند.

52 - «**التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي وسيد قطب**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند، ودار القلم - الكويت، ومؤسسة الرسالة - بيروت، ودار آفاق الغد - القاهرة.

(ث)

53 - «**ثورة في التفكير**».

وقد ضُمَّ إلى كتاب: «الإسلام من جديد».

(ج)

54 - «**جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية**».

الناشر: دار الصحوة - القاهرة.

(ح)

55 - «**حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي**».

يتضمن أربع محاضرات:

1 – النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة.

2 – مطالبة القرآن الانقياد التام والاستسلام الكامل.

3 – المجتمع الإسلامي المعاصر.

4 – حاجة العالم إلى مجتمع إسلامي مثالي أفضل.

الناشر: دار الصحوة – القاهرة.

56 – «**حاجة العالم إلى الدعوة الإسلامية**».

نشر أيضًا ضمن مجموعة بعنوان: «الإسلام والحياة» من مكتبة الحياة بالكويت.

57 – «**حاجة العالم إلى مجتمع إسلامي مثالي أفضل**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي – الهند.

58 – «**الحاجة إلى التركيز على جانب حاسم**».

الناشر: المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي – ندوة العلماء – الهند.

59 – «**حديث مع الغرب**».

الناشر: دار الإرشاد – بيروت، ودار المختار الإسلامي – القاهرة.

60 – «**الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف كما يراه شاعر الهند الكبير لسان العصر السيد أكبر حسين الإله آبادي**».

الناشر: رابطة الأدب الإسلامي العالمية مكتب شبه القارة الهندية – لكهنو الهند، ودار الصحوة – القاهرة.

61 - «**حكمة الدعوة وصفة الدعاة**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

ونشرته دار البشائر الإسلامية - بيروت. مع كلمة:

«لا بد من أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض» ألقاها سماحته بالشارقة.

(خ)

62 - «**خليج بين الإسلام والمسلمين**».

الناشر: المجمع العلمي الإسلامي العلمي - الهند.

63 - «**خواطر وفصول**».

الناشر: مكتبة الإسلام - لكهنو الهند.

(د)

64 - «**الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ودعوته**».

الناشر: المركز العربي للكتاب، الشارقة.

65 - «**دراسة السيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية**».

الناشر: دار المختار الإسلامي - القاهرة، والمجمع الإسلامي العلمي - الهند.

66 - «**درس من الحوادث**».

وقد ضم إلى كتاب: «أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

67 - «**دعوة وتاريخ**».

الناشر: الحاج محمد عمران خان الندوي عميد دار العلوم لندوة العلماء - لكهنو الهند.

68 - «**الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر وجبهاتها الحاسمة ومجالاتها الرئيسية**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

69 - «**الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

70 - «**الدعوة إلى الله حماية المجتمع من الجاهلية وصيانة الدين من التحريف**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

71 - «**الدعوة والدعاة مسئولية وتاريخ**».

يتضمن ثلاث محاضرات:

- الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر ...

- كيف انتشر الإسلام في الهند؟ المنشورة مفردةً بعنوان: الدعوة الإسلامية في الهند.

- دور الجامعات الإسلامية المطلوبة في إعداد الدعاة.

الناشر: رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

72 - «**دور الإسلام الإصلاحي في مجال العلوم الإنسانية**».

الناشر: دار الصحوة - القاهرة.

73 - «**دور الإسلام في تقدم البلاد التي دخلها**».

مقدمة المؤلف لكتاب: «الثقافة الإسلامية في الهند» لوالده العلامة المؤرخ عبد الحي الحسني رَحِمَهُ اللَّهُ المنشور من مجمع اللغة العربية بدمشق.

74 - «**دور الإسلام في نهضة الشعوب**».

محاضرة ألقيت في ثانوية طيبة بالمدينة المنورة.

75 - «**دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

76 - «**دور الجامعات الإسلامية المطلوبة في تربية العلماء وتكوين الدعاة وحماية الأقطار الإسلامية من التناقض والمجابهة**».

الناشر: المجمع الإسلامي - الهند.

77 - «**دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته**».

الناشر: المجمع الإسلامي - الهند.

78 - «**دور المسلمين القيادي والاجتهادي في الهند**».

الناشر: الأمانة العامة لندوة العلماء، لكهنو - الهند.

(ر)

79 - «**ربانية لا رهبانية**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار الشرق - بيروت، ودار الفتح - بيروت، دار القلم - دمشق.

80 - «**رجال الفكر والدعوة في الإسلام**» (1 - 4).

«الطبعة الأولى من: مطبعة جامعة دمشق».

الناشر: دار القلم - الكويت، دار القلم - دمشق «الطبعة الكاملة».

81 - «**ردة ولا أبا بكر لها**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار المختار الإسلامي - القاهرة، ودار المطبوعات الحديثة - جدة.

82 - «**رسائل الأعلام**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، دار الصحوة - القاهرة.

83 - «**رسالة التوحيد**».

الناشر: مؤسسة الصحافة والنشر في ندوة العلماء - الهند، والمجمع الإسلامي العلمي - الهند.

84 - «**رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين**».

الناشر: دار حراء للكتاب - القاهرة.

85 - «**روائع إقبال**».

الناشر: دار القلم - الكويت، والمجمع الإسلامي العلمي - الهند، ومجلس نشريات إسلام - كراتشي «باكستان»، ودار القلم - دمشق.

86 - «**روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة**».

الناشر: كلية اللغة العربية بدار العلوم لندوة العلماء - لكهنو الهند، ودار القلم - الكويت.

(س)

87 - «**سياسة التربية والتعليم السليمة**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

88 - «**سيرة خاتم النبيين «للأطفال»، وهو الجزء الخامس من سلسلة: «قصص النبيين للأطفال»**».

الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ومؤسسة الصحافة والنشر بندوة العلماء - الهند، ومجلس نشريات إسلام - كراتشي.

89 - «**السيرة النبوية**».

الناشر: دار الشروق - جدة. وظهرت الطبعة الأخيرة للكتاب تحت إشراف المؤلف من مطبعة ندوة العلماء - الهند، ودار القلم - دمشق «وقد استكمل تخريج أحاديث هذه الطبعة الأستاذ إبراهيم العلي».

(ش)

90 - «**شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال**».

يتضمن محاضرتين حول إقبال، وقد ضُمَّتا إلى كتاب: «روائع إقبال».

الناشر: مطبعة دار الكتاب العربي - عام (1951م).

91 - «**شخصيات وكتب**».

الناشر: دار القلم - دمشق، وكلية اللغة العربية بدار العلوم لندوة العلماء - الهند، ودار الصحوة - القاهرة.

(ص)

92 - «الصراع بين الإيمان والمادية».

الناشر: دار القلم - الكويت، ودار القلم - دمشق، وطبعته دار المختار الإسلامي بعنوان: «تأملات في سورة الكهف».

93 - «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية».

الناشر: دار القلم - الكويت، ودار القلم - دمشق.

94 - «صلاح الدين الأيوبي».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند.

95 - «صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول ﷺ الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثال الأول عند أهل السنة والشيعة الإمامية».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار الصحوة - القاهرة، ومطبعة الكلمة بالجيزة، ودار القلم - دمشق، وإدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر.

(ط)

96 - «الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة».

الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

97 - «الطريق إلى المدينة».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، والمكتبة العلمية بالمدينة المنورة، ودار القلم - دمشق، والمختار الإسلامي - القاهرة.

(ع)

98 - «**عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

99 - «**العرب والإسلام**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، والمكتب الإسلامي - بيروت، ودار المنارة - بمكة المكرمة.

100 - «**العرب يكتشفون أنفسهم**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

101 - «**العقيدة والعبادة والسلوك**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار ابن كثير - دمشق، ودار القلم - الكويت. وطبعته دار البشير بالقاهرة بعنوان: «منهاج الصالحين».

102 - «**على الخشبة**».

الناشر: إدارة تعليمات الإسلام - لكهنو - الهند، ودار ابن كثير - دمشق.

103 - «**العوامل الأساسية في كارثة فلسطين**».

ضُمَّ إلى كتاب: «المسلمون وقضية فلسطين»، طبعته دار الرسالة - بيروت.

(غ)

104 - «**غارة التتار على العالم الإسلامي وظهور معجزة الإسلام**».

الناشر: دار المختار الإسلامي - القاهرة.

(ف)

105 - «فاستخف قومه فأطاعوه».

الناشر: مطبعة ندوة العلماء - الهند.

106 - «الفتح للعرب المسلمين».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند. وطبعته دار المختار الإسلامي بالقاهرة بعنوان: «العاقبة للمتقين».

107 - «فضل البعثة المحمدية على الإنسانية».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

108 - «في ظلال البعثة المحمدية على الإنسانية».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

109 - «في مسيرة الحياة» (1 - 3).

الناشر: دار القلم - دمشق.

(ق)

110 - «القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام».

الناشر: رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة «ضمن مجموعة من المقالات حول القاديانية».

111 - «القاديانية مؤامرة خطيرة وثورة على النبوة المحمدية».

الناشر: مكتب المؤتمرات الإسلامية بدار العلوم لندوة العلماء - الهند.

112 - «**القادياني والقاديانية**».

الناشر: الدار السعودية للنشر - جدة.

113 - «**قارنوا بين الربح والخسارة**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - لكهنو - الهند.

114 - «**القراءة الراشدة للأطفال**» (1 - 3).

الناشر: مؤسسة الصحافة والنشر بدار العلوم لندوة العلماء - الهند، ومجلس نشريات إسلام - كراتشي «باكستان».

115 - «**القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ومطابع الرشيد - المدينة المنورة.

116 - «**قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال**».

من منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية. الطبعة الأولى: في ندوة العلماء بالهند، والطبعة الثانية: من مكتب البلدان العربية للرابطة بالتعاون مع دار البشير - عمان «الأردن».

117 - «**قصص النبيين للأطفال**» (1 - 5).

الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، ومؤسسة الصحافة والنشر، ندوة العلماء - الهند، ومجلس نشريات إسلام - كراتشي.

118 - «**قصة كتاب يحكيها مؤلفه**».

قصة تأليف كتابه الرائع: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» وقد ضمّت إلى الكتاب في الطبعة الأخيرة الصادرة من دار القلم - بدمشق.

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي – الهند.

119 – «**قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم**».

الناشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر.

(**ك**)

120 – «**كارثة التعصب اللغوي والثقافي**».

الناشر: مؤسسة الكتاب – بيروت.

121 – «**كارثة العالم العربي، الحقيقة وأسبابها**».

وقد ضُمَّ إلى كتاب: «المسلمون وقضية فلسطين».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي – الهند.

122 – «**كلمة عن أدب التراجم والحديث عن الكتب**».

ضمت إلى كتاب: نظرات في الأدب.

الناشر: كلية اللغة العربية – دار العلوم لندوة العلماء – الهند.

123 – «**كيف توجه المعارف في الأقطار الإسلامية؟**».

الناشر: دار العلوم لندوة العلماء – الهند، ورئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – الرياض.

124 – «**كيف دخل العرب التاريخ؟**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي – الهند.

125 - «**كيف يستعيد العرب مكانتهم اللائقة بهم؟ وكيف يحافظون عليها؟**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند.

126 - «**كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز والجزيرة العربية؟**».

الناشر: دار الاعتصام - القاهرة، والمجمع الإسلامي العلمي - الهند.

(م)

127 - «**المأساة الأخيرة في العالم ودراستها من الناحية الدينية والخلقية والمبدئية والدعوية، وتحليل أسبابها وانعكاساتها**».

كلمة سماحته إثر عدوان العراق على الكويت عام (1990م).

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

128 - «**المأساة الفلسطينية في بيروت**».

بيان سماحته حول المجزرة ضد الفلسطينيين عام (1982م) «وهي التي عرفت باسم: مجازر صبرا وشاتيلا».

الناشر: ندوة العلماء - الهند.

129 - «**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**».

الطبعة الأولى من لجنة التأليف والترجمة والنشر - بالقاهرة عام (1951م)، والطبعة الثانية من جماعة الأزهر للنشر والتأليف «مطبعة دار الكتاب العربي» عام (1951م)، ثم ظهرت للكتاب طبعات متكررة من دور نشر - مختلفة، منها: دار العروبة - القاهرة، ودار الكتاب العربي - بيروت، ودار عمر بن الخطاب - الإسكندرية، ومكتبة المعارف - القاهرة، ومكتبة السنة - القاهرة، ومكتبة الإيمان

- المنصورة، ودار الأنصار - القاهرة، ودار الجيل - بيروت، ومكتبة نزار مصطفى الباز - الرياض، والاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية - الكويت، وإدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، وطبعة أخرى في قطر على نفقة أمير دولة قطر صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ومجلس نشريات إسلام - كراتشي- «باكستان»، وطبعات متعددة من دار القلم - الكويت، آخرها عام (1420هـ). وعن دار القلم - دمشق «طبعة مزيدة ومنقحة ومزوّدة بفهارس عامة» (1420هـ).

130 - «**المجتمع الإسلامي المعاصر فضله وقيمته، حاجته ومتطلباته، وطريق الانتفاع به**».

«نداء لولاة الأمور، وقادة البلاد، ورجال الإصلاح والتربية في الأقطار الإسلامية».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

131 - «**محمد رسول الله ﷺ الأعظم وصاحب المنة الكبرى على العالم، مسئولية العالم المتمدن المنصف الأدبية والخلقية نحوه**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر- راي بريلي - الهند، ودار الصحوة - القاهرة.

132 - «**مختارات من أدب العرب**» (1 - 2).

الناشر: دار الشروق - جدة، ومؤسسة الصحافة والنشر بندوة العلماء - الهند، ومجلس نشريات إسلام - كراتشي.

133 - «**المدخل إلى دراسات الحديث**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار الصحوة - القاهرة.

134 - «**المد والجزر في تاريخ الإسلام**».

ضمَّ إلى كتاب: «إلى الإسلام من جديد». ونشره الشيخ عبد اللَّه بن صالح بن محمود أحد علماء نجد - ضمن مجموعة سمَّاها: «المجموعة المحمودية».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار القلم - دمشق، ضمن سلسلة: «كتب قيمة».

135 - «**مذكرات سائح في الشرق العربي**».

الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

136 - «**المرتضى «سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** رضي الله عنه»».

الناشر: دار القلم - دمشق، والمجمع الإسلامي العلمي - الهند.

137 - «**مستقبل الأمة العربية الإسلامية بعد حرب الخليج**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند. وطبعته أيضًا: دار السلام - القاهرة بالعنوان نفسه مع رسالة أخرى: «أكبر خطر على العالم العربي، المؤامرات والمخططات الدقيقة».

138 - «**المسلمون تجاه الحضارة الغربية**».

الناشر: دار المجتمع - جده.

139 - «**المسلمون في الهند**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار الفتح - دمشق.

140 - «**المسلمون ودورهم**».

الناشر: مكتبة الأمل - الكويت.

141 - «**المسلمون وقضية فلسطين**».

الناشر: الدار الكويتية - الكويت.

142 - «**مصادر العلوم الإسلامية**».

نشر أيضًا ضمن مجموعة بعنوان: «الإسلام في عالم متغير».

الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت، ومؤسسة الكتاب - بيروت.

143 - «**مطالبة القرآن الانقياد التام والاستسلام الكامل**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

144 - «**مع الإسلام**».

يتضمن مقالين: «معقل الإنسانية» و«المد والجزر في تاريخ الإسلام».

وقد ضُمّا إلى كتاب: «إلى الإسلام من جديد».

145 - «**معقل الإنسانية**».

الناشر: المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي.

146 - «**دليل المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي في دار العلوم لندوة العلماء**».

الناشر: المعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي بدار العلوم لندوة العلماء - الهند.

147 - «**ملة إبراهيم وحضارة الإسلام يجب أن ندعو إليها على بصيرة وثقة**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار ابن كثير - دمشق.

148 - «**من الجاهلية إلى الإسلام**».

مستخرجٌ من كتاب: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟».

الناشر: مكتبة الإسلام - لكهنو الهند، وجماعة أنصار السنة المحمدية - بالقاهرة، والمركز الإسلامي - بجنيف.

149 - «**من دون أحد**».

الناشر: إدارة تعليمات الإسلام - لكهنو الهند.

150 - «**من غار حراء**».

الناشر: مكتبة المنار - الكويت.

151 - «**من مؤلفات الشيخ**».

تتضمن: صلاح الدين الأيوبي، نفحات الإيمان بين صنعاء وعَمَّان، ورسائل الأعلام، ودور الإسلام الجذري في مجال العلوم الإنسانية.

152 - «**من نفحات القرن الأولى**».

الناشر: مكتبة الإسلام - لكهنو الهند.

153 - «**من نهر كابل إلى نهر اليرموك**».

الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

154 - «**منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

155 - «**مواساة أم مساواة**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

156 - «**موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية**».

وهو كتابه: «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

157 - «**موقف المسلم إزاء أسلافه الجاهليين**».

(**ن**)

158 - «**النبوة والأنبياء في ضوء القرآن**».

الناشر: دار القلم - دمشق.

159 - «**النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة**».

نشر أيضًا - ضمن مجموعة بعنوان: «حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

160 - «**النبي الخاتم**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار المختار الإسلامي - القاهرة.

161 - «**النبي الخاتم والدين الكامل وما لهما من أهمية في تاريخ الأديان والملل**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

162 - «**نحن الآن في المغرب**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

163 - «**نحو تكوين مجتمع إسلامي جديد**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

164 - «**ندوة العلماء تاريخها ورسالتها**».

الناشر: المكتب التنفيذي للمهرجان التعليمي لندوة العلماء - لكهنو الهند.

165 - «**ندوة العلماء مدرسة فكرية شاملة**».

طبع معه مقال للأستاذ/ واضح رشيد الندوي، بعنوان: «ندوة العلماء حركة ثقافية توجيهية»، مع مجموعة الصفحات للمقالين: (26) صفحة.

الناشر: الأمانة العامة لندوة العلماء - الهند.

166 - «**نظامان إلهيان للغلبة والانتصار**».

ضم إلى كتاب: «المسلمون وقضية فلسطين».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

167 - «**نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامي وأثره البعيد في اتجاهاتها وقياداتها**» = **سبق ذكره برقم (41)**.

يتضمن محاضرتين حول التربية:

أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية.

حياة الشباب المسلم مسئولية نظام التعليم والتربية «كلمة ألقيت في عمان

الأردن في (18/ 8/ 1973م)»، وقد ضُمتا إلى كتاب: «التربية الإسلامية الحرة».

الناشر: شعبة التعمير والترقي ندوة العلماء – الهند.

168 – «**نظرات في الأدب**».

من منشورات: «رابطة الأدب الإسلامي العالمية».

الناشر: رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالتعاون مع دار القلم – دمشق، والطبعة الثانية بالتعاون مع دار البشير – عمان «الأردن».

169 – «**نظرات على الجامع الصحيح للإمام البخاري وميزات أبوابه وتراجمه**».

الناشر: مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد لإحياء المعارف الإسلامي، دار الشيخ علم اللّٰه الحسني تكية كلان – راي بريلي – الهند.

170 – «**نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي**».

ضمَّ إلى كتاب: «نظرات في الأدب».

الناشر: الندوة العالمية للأدب الإسلامي دار العلوم لندوة العلماء – الهند.

171 – «**نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة الزائفة**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر – راي بريلي – الهند، والمجمع الإسلامي العلمي – الهند.

172 – «**نفحات الإيمان بين صنعاء وعَمَّان**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي – الهند، ودار الصحوة – القاهرة، ومؤسسة الرسالة – بيروت.

(هـ)

173 - «**هلال رمضان يتكلم**».

الناشر: مكتبة الإسلام - لكهنو الهند.

(و)

174 - «**وأذن في الناس بالحج**».

مستخرج من كتاب: «الأركان الأربعة».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند.

175 - «**واقع العالم الإسلامي وما هو الطريق السديد لمواجهته وإصلاحه؟**».

الناشر: دار عرفات للترجمة والنشر - راي بريلي - الهند.

176 - «**وا معتصماه**».

الناشر: المجمع الإسلامي العلمي - الهند، ودار السلام - القاهرة، والمجمع الإسلامي العلمي - الهند.

* * *

خاتمة

هؤلاء قالوا عن أبي الحسن الندوي

* * *

خاتمة

هؤلاء قالوا عن أبي الحسن الندوي

أمين الحسيني[61]: الندوي ... المؤمن المخلص، الذي يستطيع تشخيص الداء، ووصف الدواء.

البهي الخولي[62]: الندوي ... المؤمن المجاهد في اللَّه.

عمر بن الحسن آل الشيخ[63]: الندوي ... العالم النحرير، والبدر المنير.

محمد العربي[64]: الندوي ... الأديب اللبيب، والعالم الموقر المؤرخ، الحسيب النسيب.

حسن محمد المشاط[65]: الندوي ... العلامة الموفَّق.

السيد علوي عباس المالكي[66]: الندوي ... بقية السلف، وبركة الخلف، العالم العلامة، البحر الفهامة، صاحب الأخلاق المرضية، ناصر السنة النبوية، ذو الفضل والكرم، ورب السيف والقلم، ذو الفخر الجلي.

---

(61) مفتي فلسطين الأكبر رَحِمَهُ اللَّهُ، ورائد قضية القدس الشريف وأمينها، ويعد أشرف رجل عمل لقضية فلسطين.

(62) أحد المربين والموجهين الكبار من جماعة الإخوان المسلمين، صاحب كتاب «تذكرة الدعاة» و«آدم عليه السلام» وغيره من الكتب.

(63) عالم سعودي من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكان رئيسًا لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رَحِمَهُ اللَّهُ.

(64) عالم مغربي، من علماء المالكية، درَّس رَحِمَهُ اللَّهُ في الحرم المكي الشريف اللغة والحديث.

(65) من المربين الكبار الذين درَّسوا في الحرم المكي.

(66) أحد العلماء المعروفين الذين درسوا في الحرم المكي.

عبد العزيز بن باز[67]: الندوي ... العلامة المفضال.

محمد بهجة البيطار[68]: الندوي ... ذو علم واسع، وأدب جم، وفوائد غزيرة، ونوادر عذبة شهية.

محمد بهجة الأثري[69]: الندوي ... علامة محقق، وكاتب مفكر.

أحمد عبد العزيز المبارك[70]: الندوي ... داعية الإسلام، والذَّابُّ عنه بلسانه وقلمه، الجامع بين الإدراك السليم، والتطبيق الحكيم، سلالة الدوحة النبوية، والعترة المصطفوية.

عبد الفتاح أبو غدة[71]: الندوي ... العلامة الداعية الموهوب المحبوب.

مصطفى السباعي[72]: الندوي ... ذخرٌ للإسلام ودعوته. وكتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في تفهّم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها.

سيد قطب[73]: الندوي ... رجل عرفته في شخصيته وفي قلمه، فعرفت فيه

---

(67) علامة الجزيرة ومفتي المملكة العربية السعودية رَحِمَهُ اللَّهُ.

(68) العلامة السلفي الدمشقي تلميذ رشيد رضا، كان مفسرًا ومحدثًا، ولغويًّا ومؤرخًا رَحِمَهُ اللَّهُ.

(69) عام عراقي من تلامذة الآلوسي، وهو مؤرخ وأديب، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق وبغداد.

(70) رئيس القضاة في أبي ظبي.

(71) العالم الرباني المحدث السوري، له شغف بتراث الإمام اللكنوي، وقد نشر كثيرًا منه.

(72) العالم السوري المعروف، كان مراقبًا للإخوان بسوريا، وهو صاحب كتاب: «السنة ومكانتها في الشريع»، ورئيس تحرير مجلة «حضارة الإسلام»، وكان له الفضل في تأسيس كلية الشريعة بسوريا.

(73) الداعية الكبير الأديب المفكر الشهيد صاحب: «في ظلال القرآن» وغيره من الكتب.

قلب المسلم، والعقل المسلم، وعرفتُ فيه الرجل الذي يعيش بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام ... هذه شهادة للَّه أؤديها.

صالح عشماوي[74]: الندوي ... العالم العامل العارف باللَّه.

محمد محمود بالصواف[75]: الندوي ... العلامة المجاهد.

محمد أحمد باشميل[76]: الندوي ... المجاهد الكبير المحتسب.

زكي علي[77]: الندوي ... واسطة عقد المفكرين الحكماء، ونابغة الكتاب العلماء.

أنور الجندي[78]: الندوي ... له أسلو في غاية الروعة والجمال، وله قدرة عالية في البيان، وعمق الفهم للإسلام.

محمد الرابع الحسني الندوي[79]: الندوي ... قدوة أبناء المسلمين في الغيرة للدين، والكفاح لإعزاز الإسلام، والذب عن حوزته، وإقرار روحه وطبيعته الحقيقية.

---

(74) كاتب إسلامي، يلقب بشيخ الصحافة الإسلامية، منشئ مجلة: «الدعوة» القاهرية، وكان له الفضل في كثير من صحف الإخوان.

(75) عالم وداعية مرموق عراقي الأصل تخرج في الأزهر الشريف، ومن مؤسسي جماعة الإخوان في العراق، وعمل مستشارًا لوزارة المعارف السعودية.

(76) عالم حضرمي الأصل، أديب مرقوق، ألف سلسلة «الغزوات النبوية».

(77) طبيب مصري الأصل، عاش معظم حياته في سويسرا، له كتاب: «المسلمون في العالم» بالإنكليزية.

(78) كاتب إسلامي مرقوق، ألّف الكثير من الكتب في القضايا الإسلامية المعاصرة.

(79) الرئيس العام لندوة العلماء – لكهنو، ابن أخت الشيخ أبي الحسن، وخليفته.

عمر بن محمد السُّبَيِّل[80]: الندوي ... رجل جاهد في سبيل الحق والدين.

محمد حميد الدين الحسامي[81]: الندوي ... أمة وحده، وشخصية عظيمة فذة، وموسوعة فكرية متنوعة الجوانب والمباحث، قلما يجود الزمان بمثله.

عبد الله التركي[82]: الندوي ... مدرسة فكرية افتقدها العالم الإسلامي برحيله.

عبد الحليم عويس[83]: الندوي ... رجلٌ لم يتاجر يومًا بمبادئه، ولم يقف يومًا على باب أحد، ولم ينافس يومًا على الدنيا.

مرغوب الرحمن القاسمي[84]: الندوي ... رجلٌ جُبِلَ على الدين والعلم والإنسانية.

محمد عبده يماني[85]: الندوي ... رجل نذر كل حياته للإسلام ودعوته، حتى أصبحت هي حياته ومعيشته، ومبتدأه ومنتهاه، وأوله وآخره.

واضح رشيد الندوي[86]: الندوي ... قائد صنع التاريخ وجدد الفكر.

نور عالم الأميني[87]: الندوي ... صاحب الكتاب والخطاب المؤمن، والمفكر

---

(80) إمام الحرم المكي.

(81) رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم حيدر آباد.

(82) الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، ووزير الدعوة والأعيان بالمملكة العربية السعودية سابقًا.

(83) أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية «سابقًا»، له مؤلفات عدة في التاريخ الإسلامي.

(84) رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم - ديوبند.

(85) وزير الإعلام السعودي الأسبق.

(86) رئيس تحرير جريدة: «الرائد» العربية، ندوة العلماء بالهند.

(87) رئيس تحرير مجلة: «الداعية» العربية بالهند.

الداعية المثالي.

محمد لقمان الأعظمي الندوي[88]: الندوي ... صاحب منحى متميز في الحياة العلمية والرحلات الدعوية.

السيد حامد[89]: الندوي ... المؤمن الصادق المتحرّق على حالة الأمة.

عشرت علي الصديقي[90]: الندوي ... العالم الذي كان يمتلك مؤهلات القيادة الجامعة.

عبد الحليم محمود[91]: أخلصَ أبو الحسن الندوي وجهه للَّه تعالى، وسار في حياته سيرة المسلم المخلص للَّه تعالى ورسوله ﷺ، فدعا إلى الإسلام بالقدوة الحسنة، ودعا إلى الإسلام بكتبه النقية، ودعا إلى الإسلام بسياحته التي حاضر فيها، ووجَّه وأرشد، فجزاه اللَّه خير ما يَجْزِي عالمًا عن دينه.

* * *

ملحق
رسالة المؤلف إلى أبي الحسن الندوي

(88) رئيس قسم الدراسات الإسلامية بكلية إعداد المعلمين - حائل - السعودية.

(89) نائب رئيس الجامعة الإسلامية بمدينة علي جراه «سابقًا».

(90) صحفي أردي بارز.

(91) أحد كبار أساتذة الأزهر، الذين اشتغلوا بالتصوف، وصنفوا فيه، ودعوا إليه، كان أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية أصول الدين، وعين وزيرًا للأوقاف بمصر، فشيخًا للأزهر، فكان من خير من خدم الإسلام في خلال هذا المنصب رحمة اللَّه عليه.

❊ ❊ ❊

ملحق

رسالة المؤلف[92] إلى أبي الحسن الندوي

سماحة الأستاذ الداعية الإسلامي الكبير السيد أبي الحسن الندوي حَفِظَهُ اللهُ، ومد في عمره في خدمة الإسلام.

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

وبعد: فيسرّني أن أبلغكم باسمي واسم إخواني هنا من العلماء وأساتذة كلية الشريعة في «جامعة قطر» خالصَ التهنئة بحصولكم على جائزة الملك فيصل العالمية بخدمة الإسلام، وإن كنتُ أرى - دون مجاملة - أنَّ الجائزة تشرُفُ وترتقي بحصول مثلكم عليها، فقد عرفناكم من نحو ثلاثين عامًا داعيةً إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، عاملًا على إعلاء كلمة الإسلام، بالكلمة المسموعة والمقروءة، وبالعمل الإيجابي البنَّاء في كل مجال، جوَّابًا للآفاق في سبيل اللَّه، محاضرًا، ومحدثًا،

---

(92) هو الأستاذ الفاضل، العالم المحقق، والمؤلف الداعية الدكتور يوسف القرضاوي صاحب التأليف المشهور: «فقه الزكاة». أصله من مصر، تخرّج في كلية أصول الدين في الأزهر، وظهر نبوغه، وتجلت قدرته على الخطابة والكتابة وهو شاب، واتصل بحركة الإخوان، فكان موضع الثقة والاحترام في أوساطها، وكان من دعاتها الموموقين، وكتابها المرجوّين، حتى اضطرته أوضاع مصر الأخيرة إلى مغادرتها، فلجأ إلى دولة قطر، وتولّى التدريس في مدارسها، حتى وصل إلى عمادة كلية الشريعة في جامعة قطر، مع اشتغال بالتأليف والدعوة إلى اللَّه، رأسَ ندوة «الإسلام والمستشرقون» العالمية المنعقدة بدعوة «دار المصنفين» الشهيرة في «أعظم كره» الهند في (26 - 28) من ربيع الآخر عام (1402هـ)، فكان موضع تقدير وإعجاب.

تعرف عليه المكتوب إليه أثناء زيارته مصر (1370هـ - 1951م) وهو طالب شاب في الأزهر، وتوثّقت بينهما الصداقة التي دامت وأثمرت، وكل ما كان للَّه يبقى. «أبو الحسن الندوي».

ومحاورًا، وواعظًا وهاديًا، ومشاركًا بالرأي والفكر في المجالس العلمية، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية التي اختارتكم وفي المؤتمرات والندوات التي دعتكم للإسهام فيها، وآخرُها «مؤتمر السنة النبوية والسيرة» المنعقد في قطر(93)، والذي أجمع أعضاؤه على اختياركم نائبًا لرئيسه، ومتحدثًا باسم وفوده.

ولقد لمستُ ولمس معي كل من عرفكم - ولا أجاملكم - ما أنعم اللَّه به عليكم من فضائل، هي من خصائص ورثة النبيين وخلفاء الرسل صلوات اللَّه عليهم أجمعين، ومجددي الدين، تتمثل هذه الفضائل في وضوح الفكرة، وحيوية الكلمة، وحرارة الدعوة، واستقامة السلوك، والصدق مع اللَّه ومع النفس، كما تتجلّى في الاعتدال والتوازن، الذي عرفتم به في الأوساط الإسلامية، والذي جعل لكلمتكم تأثيرها، ولكتبكم قُرّاءها، ولشخصيتكم قبولها العام بين المسلمين والجماعات الإسلامية على اختلاف مشاربهم، وتنوّع وجهاتهم ومذاهبهم، حتى مَنْ خالفكم أو خالفتموه في الرأي أو الوجهة، لا يملك إلا أن يقدركم حق قدركم، ويثني عليكم، ويعترف لكم بالفضل، وهذه من نعم اللَّه الكبرى.

ولا غرر أن رأينا شيخنا أبا الحسن مثالًا متميزًا للعالم المسلم، الداعية المجدد، مثالًا بين رقة الربانيين وتوحيد السلفيين، والتزام السنيين، وثقافة المعاصرين، ومن ينابيع القرآن والسنة المطهرة علمًا وفهمًا، وتذوقًا وعملًا حتى ارتوى وروى، متضلعًا من الأدب العربي والفارسي، والأردي، وممتلئًا من كنوز التراث الإسلامي الغني، آخذًا ما صفا، وتاركًا ما كدر، ممثلًا خير تمثيل لشعار الندوة المباركة: «الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وبين الإيمان الراسخ والعلم الواسع».

شيخنا الجليل! لقد عرفتكم قبل أن ألقاكم من كتابكم المبارك: «ماذا خسر-

(93) انعقد هذا المؤتمر في شهر اللَّه المحرم (1401هـ) نوفمبر (1980م) في الدوحة.

العالم بانحطاط المسلمين؟» ثم سعدت بلقائكم يوم سَعِدَتْ بكم مصر في سنة (1951م)، وأنا طالب في كلية أصول الدين بالقاهرة، فرأيت فيكم نموذجًا للعالم العالم المعلّم «الرباني» الذي يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات، كما روي عن المسيح عليه السلام: «أحسبكم كذلك والله حسيبكم، ولا أزكي على الله أحدًا».

ولا زلتُ أذكر تلك الحارة أو ذلك الزقاق الضيق المتفرّع من شارع الموسكي في حي الأزهر، وتلك الحجرة المتواضعة التي نزلتم فيها مع مَنْ رافقكم من إخوانكم، تعيشون فيها عيشة الخشونة والزهد، رافضين ما أراد الكثيرون أن يكرموكم به من النزول في أحد الفنادق الفاخرة أو المريحة على الأقل، وأبيتم إلا أن تعيشوا عيشة طلبة العلم الفقراء.

وإن أنس لا أنسى لقاءاتكم الخصبة مع شباب الدعوة الإسلامية ومبيتكم معهم، كواحد منهم، تعطيهم من فكرك وقلبك، وتبث المعرفة التي تنير العقول، والإيمان الذي ينير القلوب، ويأخذون عنكم العلم النافع، والعمل الصالح، والروح المشرق، ويرون فيكم سمة المسلم، وصدق المؤمن، وصبر المجاهد، وقوة الزهد، وعزة العالم، وروح الداعية، الذي جعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين.

ولقد لقيتكم بعد ذلك مرات ومرات في قطر وفي الهند، ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وفي أمريكا وغيرها، فما وجدتُ الأيام زادتكم إلا ثباتًا في الأمر، وعزيمة على الرشد، وإصرارًا على الحق، ومضيًا في طريق التجرد الذي سميتوه بحق: «ربانية لا رهبانية»[94].

(94) إشارة إلى كتاب المكتوب إليه «ربانية لا رهبانية».

كما ألقاكم دائمًا في كل جديد يصدر من قلمكم وبحوثكم، وعلى صفحات المجلات الإسلامية، في مقالاتكم المسلسلة الممتعة، فأجد كل ذلك نفحة حسنية ندوية، تجمع دائمًا بين نظرات العقل الناقد، وإشراقات القلب المؤمن، وتجمع كذلك بين معرفة العالم الواسع الاطلاع، وأداء الأديب المتمكن من ناصية البيان.

كل هذا مع تواضع جم، وورع بالغ، وأدب فارع، وإخلاص نادر، وحرص على البناء لا الهدم، وعلى البذل لا الغنيمة، وعلى العمل الصامت بعيدًا عن الأضواء، وبريق الأسماء والألقاب، في عصر قصم فيه الظُّهُور حب الظهور، وتعبد الناس فيه للمناصب والعناوين.

وما نسيتُ يوم لقيتكم أخيرًا في مؤتمر السيرة والسنة في قطر، وكان من أدبكم أن سألتموني رأيي في كتابكم الأخير الذي صدر بعنوان: «التفسير السياسي للإسلام»، وفيه نقدٌ لبعض كتابات الأستاذين المودودي وسيد قطب، وقلتُ لكم فيما قلت: كنت أود أن يكون عنوانه غير هذا العنوان الذي يحمل إيماءً خاصًّا، وقد يستغله بعض العلمانيين استغلالًا سيئًا، وأنا لا أنكر أن ينتقد العلامة المودودي، أو السيد القطب الشهيد، فلا عصمة لغير رسول اللَّه ﷺ، وكل واحد بعد ذلك يؤخذ من كلامه ويترك، وهما مأجوران فيما اجتهدا فيه أصابا أو أخطأا وقد رحبتم وجزاكم اللَّه خيرًا بهذه الملاحظة، وتمنيتم لو سمعتموها قبل أن يصدر الكتاب بالعربية، فعنوانه بالأردية غير هذا العنوان.

والمهم عندي هنا أنكم لا تضيقون بالنقد صدرًا، بل تطلبونه وتقبلونه ممن هو أصغر منكم سنًّا وقدرًا، مقتدين بعمر رضي الله عنه الذي كان يقول: «رحم اللَّه امرأً أهدى إليَّ عيوب نفسي».

أستاذنا الجليل: إن الحديث إليكم بل الحديث عنكم ليعذب ويحلو، ولكن الاستماع إليكم أعذب وأحلى، وإذا كان لمثلي عدة يعتد بها فهي حب الصالحين الربانيين من أمثالكم على نحو ما قال الأول:

أحبُّ الصالحينَ ولستُ مِنْهُم عساني أنْ أنالَ بهم شَفَاعَهْ
وأكرَهُ مَنْ بضاعتُه الْمَعَاصِي وإنْ كُنَّا سواء في البِضَاعَهْ

فعسى أن يكون من ثمرات حبكم في الدنيا دعوة منكم صالحة بظهر الغيب، وفي الآخرة شفاعة حسنة عند اللَّه.

وختامًا أرجو أن تتفضلوا بتبليغ تحياتي إلى الإخوة الأحباب الحسنيين والندويين، الذين أسأل اللَّه تعالى أن يعز بهم ويعزهم، وأن يجعلهم من الذين أخلصهم اللَّه لدينه، وأخصلوا دينهم للَّه، كما أبلغكم تحياتِ وأشواقَ ودعواتِ إخواني هنا جميعًا.

كما أسأله تعالى أن يمدَّ في عمركم، ويبارك في جهادكم وجهودكم، وأن يمنحكم الصحة والعافية والتوفيق، ويتمَّ عليكم نعمه في الدنيا والآخرة، وأن ينفعنا بعلمكم وعملكم، إنه سميع قريب مجيب.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته[95].

أخوكم الفقير إلى رحمة اللَّه

يوسف القرضاوي

* * *

(95) الرسالة نقلًا عن: «رسائل الأعلام».